ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٦ ، السنـــــة : ٥٠

جمادى الآخرة ١٤٤٧هـ ، ديسمبر ٢٠٢٥م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

♦ القرآن محاط بثلاثة تحصينات	التحرير	٣

كلمة العدد

♦ النيل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ شنشنة قديمة	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤

الفكر الإسلامي

♦ من ظلال التفسير	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله	٩
♦ شبهات و ردود	المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي رَحِمَهُ اللَّهُ	١٥

دراسات إسلامية

♦ السنة دعاء واستعاذة	الأستاذ طه محمد الساكت	٢٢
♦ من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	رئيس التحرير	٢٧
♦ الآثار الضارة لانفعال الغضب من وجهتي النظر الإسلامية والسيكولوجية	الأستاذ محمد عيسوي الفيومي	٣٥
♦ القراءة المقبولة والمردودة	فضيلة الشيخ عبد الفتاح القاضي	٤٠
♦ أدب الاختلاف مع العلماء	الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي -رَحِمَهُ اللَّهُ-	٤٣
♦ مكة المكرمة: أسماؤها- صفاتها- فضلها- حرمتها	الأستاذ عبد الحميد حجازي	٤٨

إشراقة

♦ الجندي المجهول	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٥٦

كلمة المحرر

القرآن محاط بثلاثة تحصينات

القرآن كلام الله الخالد الذي كُتِبَ له البقاء والديمومة ما دامت السماوات والأرض، و تكفل بحفظه وتحصينه؛ فلايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

فمنزل القرآن الكريم-وهو الله تعالى- منزه من كل عيب ونقيصة، ليس كمثله شيء، ذو القوة المتين، فعال لما يريد، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، ولايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولايعجزه أحد في الأرض ولن يعجزه هربًا. ومن أسماء الله تعالى المهيمن، وهو بمعنى الأمين والحفيظ كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والملك الذي نزل به على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملك معصوم، أمين، ذو قوة، مكين عند ذي العرش، مطاع، مقبول القول، مصدق بقوله، مؤتمن على ما يبعث به، ويؤدي من وحي وامتثال أمر، ويطيعه من معه من الملائكة طاعةَ الجيش لقائدهم، بتوفيق من الله تعالى وفضله.

ونزل القرآن الكريم على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي شهد له بالأمانة حتى من حاربوه وقاتلوه، وناصبوه الشر والعداء، ولم يدخروا جهدًا في القضاء على دعوته والحيلولة دون أدائه لرسالته، ونشر توجيهات الله تعالى في الأرض، وكانوا يسمونه الأمين. قال تعالى:﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦-٢٧]، أي حفظة من الملائكة يحصنونه من الشياطين، يبعدونهم عنه، ويعصمونه من تخاليطهم ووساوسهم حتى يبلغ ما أوحى به إليه. وقال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ [التكوير:٢٢-٢٤].

فالقرآن الكريم محاط بثلاثة تحصينات. فإن المنزل – وهو الله تعالى – مهيمن وأمين، و الملك الذي نزل بالقرآن الكريم أمين، والرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي نزل عليه القرآن الكريم أمين.

فهذا الوعد الإلهي بحفظ القرآن، وهذه التحصينات الثلاثة مما جعل القرآن الكريم على منجاة من أن يمتد إليه يد التحريف، فبقي كما أنزل غضًّا طريًّا، يكشف الظلمات ويبددها، وينشر النور و الخير والبركة. وبلغت الأمة الإسلامية من العناية به ما لم تبلغه أمة من الأمم بحفظ كتبها: عناية بحفظ ألفاظه واستيعاب بمعانيه، وضبط مقادير المدات وتفاوت الإمالات ..... ولن تجد كتابًا في العالم يظهر ظهور القرآن الكريم أو يضبط مثل ضبطه أو يحفظ مثل حفظه، وتحتاج إليه البشرية حاجتَها إلى القرآن في قديم الزمان وحديثه.وحقًّا، (إنه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[فصلت:٤١-٤٢]. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأحد: ٢٦/٤/١٤٤٧هـ=١٩/١٠/٢٠٢٥م)

النيل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ شنشنة قديمة

في الوقت الذي يعانيه فيه الأمة الإسلامية أوضاعًا حرجة للغاية، وتظهر الفتن العمياء كالليل المظلم، ويرى المرء مواقع الفتن خلال البيوت والدور كمواقع القطر، واتفقت كلمة أعدائها على نقض الإسلام عروةً عروةً، وتمزيقه قطعةً قطعةً، وتقطيعه إربًا إربًا، ينسجون المؤامرات والدسائس علنًا ومن وراء الحجاب ومن غير استحياء، ويكيدون له كيدًا، ويمكرون به مكرًا كبارًا، وتُرصد القناطير المقنطرة للقضاء عليه، وكبت كل صوت ينادي بالإسلام، ويدعو إلى تطبيق ثقافته وشريعته في مختلف نواحي الحياة، أليس يتطلبنا العصر الراهن والأوضاع الحالية العالمية والمحلية أن نعمل ما وسعنا على توحيد كلمة المسلمين ولمّ شعثهم، وجمعهم على قلب رجل واحدٍ بعيدًا عن إثارة قضايا مفروغ الحديث عنها منذ قرون... أليس يتطلبنا أن نصرف الجهود والمساعي كلها إلى قضايا مصيرية للإسلام والمسلمين في شتى أنحاء العالم.. وهل يخفى على أحد أن المال والحكومة، ووسائل النشر والإعلام البعيدة المدى في المراكز العلمية والفكرية، التي تخلق الثورة في القلوب والعقول يستولي عليها بشكل ملحوظ أعداءُ الإسلام، وهم رغم ما بينهم من خلاف وشقاق لم يجمعهم إلا عداء الإسلام والحقد عليه، والحنق على توجيهاته ومبادئه وأحكامه، ويعدُّون الإسلام أكبر خطر يهددهم، أو يستولي عليها أشباه المسلمين الذين - وإن كانوا يحملون أسماء إسلامية،- همهم الأكبر- خوفًا من أعداء الإسلام - هو تكييف الإسلام- يعدون أكبر خدمة إسلامية- لما يريده ويهواه ساداتهم، ليس إلا.

أليس عجبًا ومن غير المعقول تمامًا أن يذهب البعض منا في مثل هذه الأوضاع المدلهمة إلى إثارة قضايا لن تزيد المسلمين إلا شقاقًا وخلافًا على ما هم عليه من أشد الخلاف والشقاق، ولن يوسع التنقيب فيها بينهم إلا الهوة والفجوة؛ ولن يزيدهم إلا ضعفًا وهوانًا، وصراعًا من شأنه أن يذهب معه ريحهم إن كانت بقيت لهم منها باقية. وقضية مشاجرات الصحابة وما حدث بينهم من خلافٍ، و الطعن فيهم عامةً، وفي سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بصفة خاصة- موضوع قد أشبعه أهل العلم دراسةً وبحثًا وتنقيبًا وتمحيصًا، وتوصلوا إلى أن الطعون والاعتراضات التي وجهوها إلى

الصحابة، وإلى سيدنا معاوية رضي الله عنه لاتعدل جناح بعوض، وأنها أهون من بيت العنكبوت.

وسيدنا معاوية رضي الله عنه قد زاغت جماعة من الناس عن الطريق الأمثل والصراط المستقيم حول شخصيته وتقييمها، وغلت في كرهه وبغضه، والتحذير منه، وربما لم ترعوِ عن رميه – والعياذ بالله- بالكفر والنفاق.

وفي هذا يقول العلامة الذهبي: «وخلف معاوية خلق كثير يحبونه ويتغالون فيه، ويفضلونه، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإما قد ولدوا في الشام على حبه، وتربى أولادهم على ذلك. وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة، وعدد كثير من التابعين والفضلاء، وحاربوا معه أهل العراق، ونشؤوا على النصب- نعوذ بالله من الهوى-. كما قد نشأ جيش علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ورعيته - إلا الخوارج منهم- على حبه، والقيام معه، وبغض من بغى عليه، والتبرؤ منهم، وغلا خلق منهم في التشيع».

ومن الحيل والمناهج الالتفافية التي يمارسها كل من في قلبه زيغ أو حقد على الإسلام وأبطاله الأولين الذين شهد لهم القرآن والسنة برضى الله تعالى عنهم وحبه لهم-هو التظاهر بأنه حريص على الحق وقبوله، واعتناق ما دل عليه الكتاب والسنة النبوية، ثم ينقضّ على بنية أساسية من بنى الإسلام، ليوهنها ويقلل من شأنها، ويحط من قدرها، ويدعي أنه يزن الناس بالميزان القسط والحق، وأي ميزان- ياترى – بعد ما امتحن الله قلوبهم واختارهم لصحبة نبيه وكتابة وحيه سبحانه وتعالى، وشهد كتابه بمكانتهم السامية عند الله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّ�ٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

والنيل من قدوات الإسلام وأئمته العظام ليس حديث الساعة أو من فيض الوقت؛ فإن هذه الحيل الالتفافية إذا ما استنطقناها وجدناها منتسبة إلى أعداء الإسلام، فإنهم يرون أن أيسر طريق إلى نقض الإسلام عروةً عروةً، وقطع الطريق على الهدى والرشاد هو النيل ممن يمثلون أسوةً للمسلمين المعاصرين واللاحقين جميعًا. ويحكي لنا الطبري في تفسيره قصة تتجلى فيها أمثال هذه الحيل الالتفافية، فيقول: «عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئًا فعرفتموه، لتتابعُني على الإسلام. فقالوا: ذلك لك. فقال

رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «سـلوني عـما شـئتم». فقـالوا: أخبرنـا عـن أربـع خـلال نـسألك عـنهن: أخبرنا: أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنـزل التـوراة؟ وأخبرنـا: كيـف مـاء المـرأة ومـاء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فقال رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني! فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هـل تعلمـون أن إسرائيـل مـرض مرضًـا شديدًا فطال سقمه منه، فنذر نذرًا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل - قال أبو جعفر: فيما أروي: وأحب الشراب إليه ألبانها؟- فقالوا: اللّٰهم، نعـم. فقـال رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أشـهد الله عليكم، و أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل مـاء المـرأة كـان الولـد ذكـرًا بـإذن الله، وإذا عـلا مـاء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللّٰهم، نعـم. قـال: اللّٰهم اشـهد! قـال: وأنـشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولاينام قلبه؟ قالوا: اللّٰهم، نعم!». قال: «اللّٰهم اشهد!».

ولم يجد اليهود مغمزًا أو مطعنًا في شيء مما قاله لهـم رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ففكـروا و قـدروا، فقتلوا كيف قدروا ثم قتلوا كيف قدروا، طعنوا فـيمن ينـزل بـالوحي عـلى النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. وقـالوا: أنـت الآن تحـدثنا مـن وليـك مـن الملائكـة، فعندها نتابعك أو نفارقك. قال: «فإن وليي جبريل، و لم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة، تابعناك و صدقناك. قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه»؟ قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَـنْ كَانَ عَـدُوًّا لِجِبْرِيـلَ فَإِنَّـهُ نَـزَّلَهُ عَلَى قَلْبِـكَ بِـإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى قوله:﴿كَأَنَّهُمْ لَايَعْلَمُـونَ﴾، فعندها باؤوا بغضب على غضب.

وحكـى البغـوي في تفـسير قولـه تعـالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُـونَ مِـنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالْأَنْـصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْـسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَـنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَـالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِـيمُ﴾ [التوبة:١٠٠] عن أبي صـخر حميـد بـن زيـاد: أتيـت محمـد بـن كعـب القرظي، فقلت له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم، فقلت: من أين تقول هذا؟ فقال: يا هذا، اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَ الـسَّابِقُونَ الْأَوَّلُـونَ

مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إلى أن قال:﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ شرط في التابعين شريطة، وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة. قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها عليّ محمد بن كعب». وقال في التفسير المظهري بعد حكاية هذا القول: «قلت: وأولى بالاحتجاج على كون جميع الصحابة فى الجنة قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ (الحديد:١٠) فإنه صريح في أن جميع الصحابة أولهم وآخرهم وعدهم الله تعالى الحسنى، يعني الجنة، وقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه». متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدري. وقال رسول الله ﷺ: «لا تمس النار مسلمًا رآني أو رأى من رآني». رواه الترمذي عن جابر.

وقال المفتي محمد شفيع رحمه الله في تفسيره (معارف القرآن ص٢٤٥٢) بعد إيراد ما سبق: «إن الذين يطعنون في بعض الصحابة رضي الله عنهم نظرًا إلى ما شجر بيهنم- ليوثورا قلوب القراء سوء الظن بهم- قد سلكوا بأنفسهم طريقًا إلى البوار، نعوذ بالله من ذلك».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى(٤/ ٤٧٢): «ولهذا كانوا أبهت الناس وأشدهم فريةً مثل ما يذكرون عن معاوية؛ فإن معاوية ثبت بالتواتر أنه أمره النبي ﷺ كما أمر غيره وجاهد معه، وكان أمينًا عنده يكتب له الوحي، وما اتهمه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتابة الوحي. و ولاه عمر بن الخطاب - الذي كان من أخبر الناس بالرجال، وقد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه - ولم يتهمه في ولايته، وقد ولى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أباه أبا سفيان إلى أن مات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو على ولايته. فمعاوية خير من أبيه وأحسن إسلامًا من أبيه باتفاق المسلمين. وإذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولى أباه فلأن تجوز ولايته بطريق الأولى والأحرى؛ ولم يكن من أهل الردة قط، ولا نسبه أحد من أهل العلم إلى الردة، فالذين ينسبون هؤلاء إلى الردة هم الذين ينسبون أبا بكر وعمر وعثمان وعامة أهل بدر وأهل بيعة الرضوان وغيرهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان- إلى ما لايليق بهم، والذين نسبوا هؤلاء إلى الردة يقول بعضهم: إنه مات و وجهه إلى الشرق، والصليب على وجهه، وهذا مما يعلم كل عاقل أنه من أعظم الكذب والفرية عليه. ولو قال قائل: هذا فيمن هو دون معاوية من ملوك بني أمية، وبني العباس كعبد

الملك بن مروان، وأولاده، وأبي جعفر المنصور و ولديه - الملقبين بالمهدي والهادي - والرشيد وأمثالهم من الذين تولوا الخلافة وأمر المؤمنين؛ فمن نسب واحدًا من هؤلاء إلى الردة، وإلى أنه مات على دين النصارى لعَلِم كل عاقل أنه من أعظم الناس فريةً، فكيف يقال مثل هذا في معاوية وأمثاله من الصحابة».

ويقول في(٤/٤٧٧): «ومن قال عن معاوية وأمثاله؛ ممن ظهر إسلامه وصلاته وحجه وصيامه: إنه لم يسلم، وأنه كان مقيمًا على الكفر، فهو بمنزلة من يقول ذلك في غيره، كما لو ادعى مدعٍ ذلك في العباس وجعفر وعقيل وفي أبي بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وكما لو ادعى أن الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ليسا ولدي علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إنما هما أولاد سلمان الفارسي، ولو ادعى أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتزوج ابنتي أبي بكر وعمر، ولم يزوج بنتيه عثمان؛ بل إنكار إسلام معاوية أقبح من إنكار هذه الأمور؛ فإن منها ما لا يعرفه إلا العلماء. وأما إسلام معاوية و ولايته على المسلمين، والإمارة والخلافة فأمر يعرفه جماهير الخلق، ولو أنكر منكر إسلام علي، أو ادعى بقاءه على الكفر؛ لم يحتج عليه إلا بمثل ما يحتج به على من أنكر إسلام أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية وغيرهم. وإن كان بعضهم أفضل من بعض، فتفاضلهم لايمنع اشتراكهم في ظهور إسلامهم. وأما قول القائل: إيمان معاوية كان نفاقًا؛ فهو أيضًا من الكذب المختلق؛ فإنه ليس في علماء المسلمين من اتهم معاوية بالنفاق؛ بل العلماء متفقون على حسن إسلامه؛ وقد توقف بعضهم في حسن إسلام أبي سفيان - أبيه -، وأما معاوية وأخوه يزيد فلم يتنازعوا في حسن إسلامهما، كما لم يتنازعوا في حسن إسلام عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وأمثالهم من مسلمة الفتح، وكيف يكون رجلا متوليًا على المسلمين أربعين سنة نائبًا ومستقلًا يصلي بهم الصلوات الخمس، ويخطب ويعظهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقيم فيهم الحدود، ويقسم بينهم فيأهم ومغانمهم وصدقاتهم، ويحج بهم، ومع هذا يخفي نفاقه عليهم كلهم؟ وفيهم من أعيان الصحابة جماعة كثيرة؛ بل أبلغ من هذا أنه - ولله الحمد - لم يكن من الخلفاء الذين لهم ولاية عامة من خلفاء بني أمية وبني العباس أحد يتهم بالزندقة والنفاق، وبنو أمية لم ينسب أحد منهم إلى الزندقة والنفاق، وإن كان قد ينسب الرجل منهم إلى نوع من البدعة أو نوع من الظلم؛ لكن لم ينسب أحد منهم من أهل العلم إلى زندقة ونفاق».

اللّٰهم أرنا الحق حقًّا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(من سورة الأعراف ١٧١-١٨٦)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

أي ميثاق الكتاب- العهد والاعتراف- الذي يُذكرهم به قد أخِذ عليهم بعناية كبيرة حتى رفع الجبال فوق رؤوسهم، وقيل لهم: خذوا ما آتيناكم من التوراة وغيرها بقوة وعزيمة، وتذكروا دائمًا ما توعظون به، فإن أبيتم فاعلموا أن الله تعالى قادر على أن يسقط عليكم هذا الجبل ويهلككم، فيا للأسف إنهم نسوا -كل النسيان - هذا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم بهذه العناية و التخويف والتأكيد. وسبقت قصة رفع الجبل هذه في سورة البقرة في الربع الأول من الجزء الأول من القرآن الكريم فليرجع إليها.

أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

ذكرَ الميثاقَ العام بعد ذكر الميثاق الخاص. والذي يشكل حجرَ الزوايةِ في جميع العقائد الصحيحة والأديان السماوية هو أن يؤمن الإنسان بوجود الله تعالى وربوبيته العامة. وبناء الدين كله يقوم على هذا الأساس. وهيهات أن ينفع- في المجال الديني- شيء من توجيهات العقل والفكر، وإرشادات الأنبياء والرسل ما لم يؤمن به المرء. وإذا تعمقنا في النظر تبين لنا أن جميع المبادئ والفروع في الدين السماوي تنتهي إلى عقيدة الربوبية العامة لله تعالى هذه؛ بل هي مطوية في ثناياها. ولايفسر العقل والوحي والإلهام إلا هذا الإجمال، فكان لابد أن توزع بكل سخاء بذرة الهداية هذه – وهي أحرِ بأن نصفها بأنها المبدأ والمنتهى لجميع التوجيهات السماوية، والوجود الإجمالي لجميع الإرشادات الربانية - في أعضاء النوع البشري كله، ليصل كل إنسان بهذه البذرة – بعد الاستقاء من العقل والفهم والوحي والإلهام - إلى شجرة الإيمان والتوحيد،

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

ولـولا أن الله تعـالى أودع هـذه البـذرة مسبقًا قلـوب بني آدم، ولـو أنـه أسـند كـشف معـضلتها الأساسية والمحوريـة الأولى إلى العقـل والفكـر، لتاهـت هـذه القـضية بـدورها في متاهـات الاسـتدلال المنطقـي، وأصبحت قضية نظرية، مما لايتفق عليه أكثر الناس فضلًا عـن كلهـم. كـما تـشهد التجـارب بـأن معـارك الفكـر والاسـتدلال تـؤدي في الغالـب إلى الاخـتلاف والفرقـة أكثـر مـن الاتفـاق والوحـدة. فكـما أودع الله تعـالى البـشر قـوة التفكـير والتأمـل، واسـتعداد قبـول نور الوحي والإلهام، أعطاه طبعًا وفطرةً العلمَ بهذه العقيـدة الأساسـية التـي تتـضمن في ثناياهـا تفاصـيل جميـع التوجيهـات الـسماوية، والتـي لايقـوم بـدونها عمود من أعمدة بناء الدين. ومن انعكاسات هذا التعليم الأزلي والإلهي أن بني آدم اتفقوا على عقيدة الربوبيـة العامـة لله تعـالى لحـد مـا في كـل قـرن مـن القـرون وناحيـة مـن النـواحي. وأمـا العـدد المحـدود من الذين رفعوا أصواتهم ضد هذا الشعور الفطري العام لمرض عقلي أو روحي، فقد ظهر في نهاية الأمر كـذبهم بـين يـدي العـالم وفي نظـرهم أيـضًا، كـما أن المصاب بالحمى و غيرها من الأمراض يظهر كذبه في تأكيـده أن الأطعمـة اللذيـذة الرائعـة مـرةٌ وتافهـةٌ. وعـلى كـل، فـإن اتفـاق وإجمـاع البـشر في كـل درجـة وطبقة على الربوبية الكبرى لله تعالى أعظم دليل على أن هـذه العقيـدة قـد علمهـا خـالق الطبيعـة بنـي آدم مباشرةً قبل أن يودعهم العقول والأفكار، وإلا فإن تحقق مثل هذا الاتفاق عن طريق الفكر والاستدلال يكاد يستحيل. ومما يمتاز به القرآن الكريم أنه سلط الـضوء في هـذه الآيـات عـلى التنـاغم الفطـري لهـذه العقيدة. ومما لاشك فيه أننا لانتذكر متى وأين وفي أي جو جاء تعليم هذه العقيدة الأساسية، ولكن كما يؤمن كل كاتب ومحاضر بأنه تعلم في باكورة عمره نطق الكلمات على أحد، حتى ارتقى إلى هذه المنزلة، وإن لم يتذكر معلـمَ الكلمـة الأولى، وزمـان تعليمهـا، ومكانـه وغيرهـا مـن الخـصائص المكانيـة؛ بـل نفـسَ التعلـيم، ولكـن انعكاسـاته تؤكـد أن هـذه القـصة وقعـت فعـلًا، كـذلك اتفـاق النـوع البـشري عـلى اخـتلاف الأمـم والأجيـال عـلى عقيـدة ربوبيـة الله تعالى دليل صارخ على أن هذا الأمر أودعه إياهم يدُ معلـم مـن المعلمـين في فاتحـة الفطـرة، وأمـا عـدم الاحتفاظ بالخصائص التعليمية فلايخل بالاعتراف بتعليمـه. وهـذا التعلـيم الأزلي والفطـري- الـذي لازالـت انعكاسـاتها حـاضرة في الطبيعـة البـشرية ليومنا هذا - جعل الإنسان محجوجًا أمام حجة الله تعـالى. والـذي يتعلـل في اعتبـار إلحـاده وشركـه حقًّـا وصـوابًا بغفلتـه وجهلـه أو تقليـده الأعمـى لآبائـه، يجوز أن نقدم إليه حجةَ الله القاطعة هذه التي توجِّه

إلى أصل الفطرة الإنسانية – ردًّا حاسمًا عليه.

ويقول الشاه رحمه الله: أخرج الله تعالى من ظهر آدم ذريته ومنهم ذريتهم، وأخذ عليها العهد بألوهيته، ثم أعادها إلى الظهر، والغرض منه أن كل واحد منهم يكفي نفسه في الإيمان بأن الله تعالى هو الرب المطلق، وحذارِ أن يقلد فيه آباءه، وعلى الابن أن يؤمن به وإن كان أبوه كافرًا. فإن قيل: لم نتذكر هذا العهد، فما فائدته؟ فليعلم أن علامته في كل واحد منهم، واشتهر على الألسنة كلها أن الله خالقهم جميعًا، والعالم كله قائل به، وأما المنكر أو المشرك فمن جراء عقله الناقص، فهو الكاذب نفسه.

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

في موضح القرآن: تلا هذه القصة على اليهود، فإنهم أعرضوا عن العهد، كما يعرض المشركون عنه.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

نزلت هذه الآيات – كما ذهب إليه معظم المفسرين – في بلعم بن باعوراء، أحد العلماء و الصالحين ذوي التصرفات، ثم أعرض عن آيات الله تعالى وهداه، ثم حدثته نفسه أن يتعرض بتصرفاته لموسى عليه السلام، ويمكر به سوء المكر بإغواء من امرأة وحرصًا على المال، فلم يضر موسى عليه السلام شيئًا، ومات ملعونًا أبديًّا. وعلمُ آيات الله تعالى الذي أعطيه بلعم لوشاء الله تعالى أن يرفعه به لرفعه منازل بعيدة، وهيهات ذلك إلا بأن يوفق للعمل بعلمه، واتباع آيات الله تعالى، ولم يحدث ذلك، فإنه بدوره أعرض عن البركات السماوية والآيات، وأخلد إلى شهوات الأرض وملذاتها، واتبع هواه، وكان الشيطان من وراءه يتابعه، حتى انضم إلى صفوف الزائغين والضالين المحض. فصار أشبه بالكلب الذي يخرج لسانه من فيه، وهو يلهث، فهو يلهث ويخرج لسانه سواء حملته عبأً أو نهرته أو تركته وشأنه، فإنه لضعف قلبه الطبيعي لايقدر على استخراج الهواء الحار من بطنه، واستنشاق الهواء البارد الجديد إلى داخله بسهولة ويسر. فكذلك الكلب الوالغ في الأهواء السفلية، فإنه من جراء ضعفه الأخلاقي يستوي فيه أن يُعطى آيات الله، أو ينبَّه أم لا، (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَاَنْذَرْتَهُمْ اَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ) [البقرة:٦]، فلسانه خارج من فيه لحرصه على الدنيا، وتمثل اضطرابُ خاطره وقلقه لشؤم

الإعراض عن الآيات في لهثه الدائم. ولعله ساق قوله: (اِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ اَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) [الأعراف:١٧٦] على سبيل المثال لبيان حال بلعم الظاهرة والباطنة، أو أنه جعل عقوبته في الدنيا أو الآخرة أن لسانه يخرج من فيه مثل الكلب خروجًا ملموسًا وظاهرًا، ويلهث دائمًا لهث القلِق المضطرِب المذعور، والعياذ بالله.

ومهما كان سبب نزول الآيات غير أنها تدل على مغبة أصحاب الأهواء مثله، ممن يعرض عن آيات الله، ويتبع خطوات الشيطان، ثم لايبالي بعهد الله وميثاقه أي مبالاة، مدفوعًا بمجرد الطمع الدنيوي أو الأهواء السفلية الحقيرة بعد أن استجاب للحق أو بعد أن أدركه كل الإدراك. وكأن فيه تنبيهًا لليهود على أن مجرد العلم بالكتاب لايغني ما لم يتحقق اتباعه حق الاتباع، (مَثَلُ الَّذِيْنَ حُمِّلُوا التَّوْرٰىةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوْهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ اَسْفَارًا) [الجمعة:٥]، وهذه الآيات تحمل في ثنايا أعظم العبر والعظات لعلماء السوء لو كانوا يعلمون.

سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

وأكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثلة بالعنكبوت والذباب وغيرهما ردًّا على المشركين وغيرهم في مواضع كثيرة، وأما مثال هؤلاء فبالغ في القبح والشناعة كل مبلغ، لايرضى أحد ذو غيرة بأن يصفه بنفسه ما استطاع إليه سبيلا، وأما عديم الحياء الفاجر الذي يرضى به لنفسه، فلايضر إلا نفسه.

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٓ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

لاينفع العلم والفضل الإنسانَ إلا إذا حالفه التوفيق للعمل بالعلم الصحيح بهدى من الله تعالى وعونه. وأما من لم يوفقه الله تعالى للاهتداء؛ فإنه لن يجني- مهما أوتي من علم وفضل وكفاءة- إلا الخسران والضياع. فحذارِ أن يغتر الإنسان بعلمه وفضله؛ بل عليه أن يسأل الله تعالى دائمًا الهداية والتوفيق.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

ظاهر هذه الآية يعارض قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْاِنْسَ اِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ) [الذاريات:٥٦]، فحمل بعض المفسرين اللام في قوله: (لِيَعْبُدُوْنَ) على الغاية، وهنا في قوله: (لِجَهَنَّمَ) على العاقبة، أي أصل الغرض من خلقهم جميعًا هو العبادة؛ ولكن لايحقق كثير من الإنس والجن هذا

الغرض، فعاقبتهم النار. فنظرًا إلى هذه العاقبة يجوز القول بأنهم خلِقوا للنار. كما في قوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُوْنَ لَهُمْ عَدُوًّا وَّحَزَنًا) [القصص:٨]، وأما غيرهم من المحققين فلم يروا حاجة إلى ذلك، فاللام في الموضعين لام الغاية، إلا أن الغاية في قوله: (لِيَعْبُدُوْنَ) تشريعية، وفي قوله هنا: (لِجَهَنَّمَ) تكوينية.

فائدة:

أي لهم كل شيء من القلب والأذن والعين، ولكنهم لايتدبرون بقلوبهم آيات الله، ولاينظرون في آيات الله نظرة تعمق واعتبار، ولايسمعون كلام الله سماع قبول. كما أن جميع إدراكات البهائم تنحصر في الأكل والشرب والعواطف البهيمية. فهؤلاء مثلها، فإنهم نذروا جميع ما منَّ الله تعالى به عليهم من القلب واليد والرجل والأذن والعين لتحقيق واستكمال الملذات الدنيوية والرغبات المادية. ولاهمَّ لهم أن يكتسبوا الكمالات الإنسانية والخصائل الملكوتية؛ بل هم – إذا تأملنا- أسوأ حالًا من البهائم، فإن الحيوان يستجيب إذا ناداه صاحبه، ويتوقف إذا زجره، وأما هؤلاء فلايصغون آذانهم لكلام مالكهم الحق أبدًا، ثم إن الحيوانات إنما تستخدم قواها الطبيعية فيما قدره الله تعالى لها، وأما هؤلاء فقد ضيعوا وعطلوا- بغفلهم الفاتك وزيغهم- ما أودعهم الله تعالى من القوة الفطرية التي تجلب الرقي الروحاني والعرفاني.

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

بعد أن تعرض لحال الغافلين نبَّه المؤمنين، فقال: حذارِ أن تغفلوا. والذي يدفع الغفلة هو ذكر الله تعالى. فاذكروه دائمًا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، واجتنبوا الذين يلحدون في أسمائه وصفاته، فكما يدينون يدانون. والإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته أن يطلقوا على الله تعالى أسماء وصفات لم تسمح بها الشريعة، وما لايليق بجلال الله تعالى وعظمته، أو أن يطلقوا ما يخصه من اسم وصفة على غيره سبحانه، أو يؤولوا معناها تأويلًا لا أصل له، ويجاذبها، أو يستخدمها في المعاصي – كالسحر ونحوه-، فهذا كله من الإلحاد فيها.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

هذه الأمة هي الأمة المحمدية المرحومة على صاحبها الصلاة التسليم، التي فارقت أنواع الإفراط والتفريط والإلحاد كلها، إلى طريق الصدق والعدل والاعتدال والوسطية، وإليها تدعو غيرَها. ثم ذكر أعداء هذه الأمة والمكذبين بالحق.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

إن المكذبين المجرمين قد لاينالهم العذاب عاجلًا؛ بل يفتح عليهم أبواب الرخاء والسعة في الدنيا، حتى أمنوا عذاب الله تعالى، وتجرؤوا على اقتراف الجرائم أكثر، وأكدوا مع مرور الأيام بصراحة أنهم يستحقون العذاب الذي تقرر إنزاله عليهم في النهاية، فهذا إمهال واستدراج من الله تعالى. ويرون لسفههم ووقاحتهم أن الله تعالى يتكرم عليهم، وهم في الواقع يُهَيَّؤون للعذاب النهائي. وأطلق «مكر الله» -أي الحيلة الخفية- على اتخاذ إجراءات ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب. ولاشك أن مكر الله تعالى قوي متين للغاية، لايدفعه حيلة أو تدبير.

أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

إذًا ما سبب تكذيب آيات الله تعالى والغفلة عن سوء عاقبتها؟ والذي جاء بهذه الآيات ليس -والعياذ بالله- مجنونًا، فقد لبث فيكم طوال عمره، وأنتم مطلعون على أحواله كلها صغيرها وكبيرها. ومن المسلم به والمعروف عقله وفهمه وأمانته ودينه، والذي جاء به من عنده مالك العالمين، والملك المطلق، وخالق كل شيء. فانظر في نظام حكمه المحكم والمتين؛ بل في كل شيء خلقه من صغير وكبير، فإن هذه الآيات التكوينية تؤكد الآيات التنزيلية، فهل يبقى من عذر في قبول آيات الله تعالى؟ وليعلموا أن أجلهم وهلاكهم لعله قد دنا واقترب، فليتعجلوا في الإعداد لما بعد الموت.

فائدة:

أي إن لم يؤمنوا بالآيات القرآنية، فأي كلام وحديث في الدنيا يرجى أن يؤمنوا به، فاعلموا أن هؤلاء الأشقياء لم يُكتَب لهم نعمة الإيمان.

مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

والهدى والضلال كله بيد الله تعالى، فأسباب الهداية كلها تبقى غير نافعة إذا لم يشأ الله تعالى الهداية. ولم ينتفع المرء بشيء. اللّٰهم إلا أنه لايوفق للهدى في العادة إلا إذا أراد العبد أن يسلك طريقه بكسب واختيار منه. وأما من تصدى عن قصد وعمد للشر والفجور، فإن الله تعالى يدعه وشأنه بعد أن يُرِيَهَ الطريق.

* * *

شبهات و ردود

(الحلقة ٤)

بقلم : **المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ
المعروف بـ«حكيم الأمة» المتوفى ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م

تعريب : محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدي سلمهم الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رغم أني لم أحظ بزيارتكم مشافهةً، لكني على حب واعتقاد فيكم بما سمعت عن أخلاقكم وصفاتكم، الأمر الذي جرَّأني على ما عرضت عليكم. فلاتبالوا بخمولي وعدم معرفتكم بي؛ بل انظروا إلى ما قال، ولاتنظروا إلى من قال. فأبدأ بسم الله تعالى.

سيدي، أمعنت النظر في مساعيكم ومؤلفاتكم، فتبين لي أنك تهدف إلى أمرين. الأول: النصح للإسلام، والثاني النصح للمسلمين. فالنصح للإسلام حملكم على كشف الشبهات التي يثيرها الأعداء في الإسلام، وأما النصح للمسلمين فحدا بكم انتشال المسلمين في حضيض التخلف إلى سبيل الرقي والازدهار. ولانقاش لمنصف في جودة هذين الهدفين. وإنما يتطلب النظر والتفكير هو أسبابه ووسائله؟ فتحديدها مما اختلف فيه آراء جمهور أهل الإسلام.

رأيتم الطريق إلى كشف الشبهات المثارة في الإسلام الاحتراز عن النقاش في التحقيقات الجديدة ومحاولة تطبيق الإسلام عليها ما أمكن. و السبب وراء هذا الاقتراح أن التحقيقات الجديدة موافقة للواقع، وهيهات أن يخالف الإسلام الواقعَ. ولامجال لأحد من المسلمين للخلاف في قبول المقدمة الثانية. وأما المقدمة الأولى فهي محل الكلام والنقاش. ومثال ذلك أن الفلاسفة توصلوا إلى أن السماء ليست جسمًا، وأي دليل على صحته يا ترى؟ وهَبْ أن هذا اللون الذي نراه ليس سماء، فإن ثمة سماء على مسافة خمس مئة عام كما دل عليه الحديث الصحيح، وفوقها سماوات أخرى. وأي دليل عقلي قاطع يخالفه هذا القول؟ ومثلا توصلوا إلى أنه لا وجود لما تؤكده عقائد الإسلام من أصحاب الكهف أو يأجوج ومأجوج والجن. وما الدليل عليه؟ فإن قيل: لم نعثر عليها رغم بحثنا، ولانرى

الجن بأعيننا، فعدم وجود شيء في العالم أو عدم إمكان رؤيته ليس دليلًا على عدمه. فهذه «أمريكا» لم يكن يعرفها الناس قديمًا، ولم يطلع عليه السياح في العالم. وتؤكد الأخبار الوثيقة ظهور أجزاء جديدة من العالم، فهل هذه الأماكن كانت معدومة حينئذ؟

وأما عدم وجود المدن - التي سماها المفسرون- في أماكنها، فالجواب عنه أولًا أن الله تعالى قادر على أن يحجبها عن الناس وهي في أماكنها. كما سيأتي حديث في ذلك في مبحث المعجزة. ولو سلمنا عدم وجودها في هذه الأماكن فربما توجد في أماكن أخرى. وما الدافع إلى تأويل النصوص؟ مثلًا: أنكر الفلاسفة الجدد معجزات الأنبياء، بحجة أنها على خلاف الفطرة، فأي دليل مقنع يوجب صرف النصوص عن ظواهرها؟

وأما القول بأنها على خلاف الفطرة، فإن هذه الفطرة لم يتم تعيين ماهيتها حتى اليوم، حتى تكون قاعدة ضابطة. كما لم يثبت بدليل يقيني سبب مخالفتها للفطرة. فإن قالوا: الفطرة هي العادات الإلهية، و إن استدلوا على استحالة مخالفة الفطرة بأن العادة الإلهية وعد فعلي، ومخالفته محالٌ كما يستحيل مخالفة الوعد القولي.

فالجواب عنه أن المقدمتين فيهما كلام، فإنه- أولًا- ليست العادة الإلهية وعدًا، وهذا أمر يتطلب الدليل، وثانيًا: العادة لاتستوجب وقوعها كل يوم، فقد تكون العادة في بعض الأمور أن تقع حينًا بعدحين. والمعجزات من هذا الباب. وهذا يرد استدلالهم أيضًا.

قال الله تعالى:

فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ [الروم:٣٠].

وقال تعالى:

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا [الأحزاب:٦٤].

هذا إذا حملنا هذه الآيات على المعنى الذي ذهبتم إليه، وأما إذا حملناها على معنى آخر ذهب إليه المحققون من المفسرين، وهو معنى لايبعد كثيرا من تأويلاتكم، فلايصح الاستدلال بها على ما ذهبتم إليه. فاستغنى عن الجواب. وثانيًا: هذه الاختراعات من القطار والسلك الكهربائي والصور الفوتوغرافية و التليفون والهاتف وأشياء كثيرة جدا، قل لي بربك: من لم يشاهد هذه الأشياء، ويقول بضابطكم القائل: ما خالف العادة فهو محال، فهل ينكر هذه الأشياء أم لا حسب ضابطكم؟ لا شك أنه ينكرها. فإن صح هذا الضابط لزمكم إنكار هذه الأشياء؛ بل لم يجب الإيمان بصانع العالم. وأما إذا كان وجود هذه الأشياء مسلمًا به وجب التخلي عن هذا الضابط.

فإن قيل: هذه الأشياء مستندة إلى الأسباب، وأما المعجزة فهي فعل بلا سبب، فالجواب عنه أن انحصار الأسباب في الأسباب الدنيوية الاختيارية

للعباد لابد لثبوته من دليل. وما أعظم مشيئة الله تعالى وأمره سببًا؟! وهل في كونها سببا فساد عقلي؟ فثبت إمكانية صدور المعجزة بأنواعها عن الأنبياء عليهم السلام، فكيف نؤول النصوص؟

وقِس عليها التحقيقات الجديدة الأخرى، فمعظمها مخدوش وقائم على تخمين وتقليد، وأما إن كان دليلا عقليًا، وجميع مقدماته برهانية، أو كانت مشاهدة صحيحة، لاتحتمل الخطأَ في الفهم، ولايُعلَم نص يخالفه ظاهرًا، فإنه يجب حينئذ تأويل هذا النص تأويلا مناسبًا، ومثاله: تفيد ظاهر النصوص القرآنية ثبوت اليد والوجه لله تعالى. والدليل القاطع يؤكد انتفاء الأجزاء عنه، فأولوا هذه الكلمات. ولابد للتأويل أن يوافق القواعد العربية والشرعية، وإلا كان تحريفًا. وأما تأويلاتكم فهي أولًا من غير حاجة إليها، كما أسلفنا آنفًا، وثانيا: لاتخضع للقواعد العربية ولا القواعد الشرعية. وقد رد العلماء في القديم أيضًا على الملاحدة إلا أنهم بدؤوا بنقض تحقيقاتهم، فإن وجدوا شيئًا منها صحيحًا مئة في المئة، أوّلوا حينئذ تأويلا مناسبًا.

وعلم من هنا أن إلغاءكم معظم الأحاديث النبوية لا دليل عليه. فإن كان دليل المخالفة دليلا عقليًا، فقد علِمَ أن المراد بالدليل العقلي هو الدليل القاطع، لا الدليل الوهمي، وإلا صعب تعيين هذا الدليل العقلي، فيعتبر بعضهم بعض العقل محكا وسندا له، فإن العقول تتفاوت تفاوتًا فاحشًا، فيختلف التحقيق العقلي من شخص إلى آخر، ولزم اعتباره كله صحيحًا. وهذا يستلزم اجتماع النقيضين والتقاء الضدين. ومثاله أن بطليموس وفيثاغورس اختلفا في حركة وسكون الأرض والسماء، كما اختلف أفلاطون وأرسطو في حدوث الأرواح وقدمها. ولابد أن تحقيق أحدهما باطل. وحيث أمكن الخطأ في التحقيق العقلي، فكيف علمتَ أن تحقيقك العقلي بلغ من الصحة مكانًا يوجب تأويل النص حتمًا. فعلِم منه أن عقل من هذا شأنه غير مقبول وغير معتبر في هذه الأمور. وأما من كانت نبوته وأخباره عن الواقع مسلمًا بها، فإن خبره له اعتبار واعتداد. وإنما وظيفة العقل أن يدرك التوحيد والرسالة وهما من الأصول العقلية. ثم يكل الأمر إلى الحاكم الحقيقي و خليفته الأعظم فيما بعد ذلك من الفروع.

ألا ترى أن سلطان الوقت إذا نَفَّذ بعد التفكير والتأمل قانونًا في الدولة على يد أحد أمرائه، فإن الرعية يحق لهم أن يتحققوا أنه سلطان، وأن فلانا أمير من أمرائه، حتى يتحاشوا العمل بما نادى به أحد على لسان المنادي المزيف على سبيل الخروج على الدولة أو استهزاءً به في المدينة. فإذا تحقق الأمران، لم يجز النظر في القانون هل يخالف عقولهم أم يوافقهم؟ فإن فعلوا ورفضوا القانون اتباعًا

لعقولهم، أو أولوه تأويلا بعيدًا، لم يكن لهم عذر. ولو فتِح هذا الباب لعاد جريان القوانين في الدولة موتًا أحمر، وعم البغي والخروج، فقِس عليه أوامر الحاكم الحقيقي. وأما إذا أنكرت الحديث بناء على أن فيها بعض الاختلاف، فتأمل في التواريخ والأخبار ألا يتطرق إليها الاختلاف؟ ولم يكن شيء من التواريخ والأخبار معتبرا مادام الاختلاف قائمًا. كما أن المؤرخين يقبلون الأخبار بعد أن ينظروا في قبول رواة الأخبار. ولايرون الاختلاف ضارا. فهلا وقفوا هذا الموقف من الحديث بعد النظر في تراجم رواة الإسناد بالرجوع إلى أسماء الرجال؟

ولعل هذا التوضيح كشف جميع أفكاركم التي دفعت إلى هذه الكتابات. ثم إن الكلام في التحقيقات الدينية من وظائف الآخرين فلكل فن رجال. وإياك أن تظن بقولي هذا أني أنكر عقلك وعلمك، فليس الأمر كذلك؛ بل الواقع أن كل أمر يؤخذ فيه قول من كان مقبولا قوله فيه مسبقًا. فتحقيقات العلماء المحققين تنال القبول والرضا عند المسلمين، وهم قائمون بهذا العمل في قليل أو كثير. وفيهم غنية لهذه الوظيفة. وثانيًا: ما من عصر إلا ويحمل معه ما يناسبه من اللوازم والخواص والآثار، فإنه أولًا نرى في زماننا – وإن لم يكن في كل زمان– أن تحقيق المسائل يتطلب الأمور التالية: اشتهاره بالعلم، والتقوى والورع، اشتغاله فيه أكثر، تدينه وفهمه عند الناس، وألايكثر من مخالطة الدنيا، فلايجوز خوض هذا الميدان لمن لم يحمل هذه المواصفات؛ فإنه سعي لاطائل تحته، وجهد باطل. وفي الوضع الذي أنت فيه اليوم لزمك السكوت حتى ولو كان شيء من تحقيقاتك صحيحًا. فإن إبداء الرأي في مثل هذا الوضع– وخاصة إبداء رأي يخالف العالم كله– لايعني إلا شق عصا المسلمين وتشتيت شملهم من غير كد. وأنت أشد الناس كراهة له. ويا للعجب، أنت لاتنظر في أسباب هذه التفرقة والتشتيت.

هذا ما يخص النصح للإسلام، والأمر الثاني النصح للمسلمين واتخاذ التدابير التي تعين على رقيهم وازدهارهم، فلانقاش في استحسانه. اللّٰهم إلا أن التدابير التي تتخذ في هذه السبيل محل نظر وتأمل. وحاصل الإجراءات التي تتخذها لنيل كبار المناصب والتوصل إلى الحكام ونيل المكانة في عين الأمة عن طريق التحلي بالقدرة الفائقة في الإنجليزية، ولا أودّ الخوض كثيرا في حكم دراسة الإنجليزية في الوضع الذي نحن فيه؟ وما مدى تداعياتها على الدين كما نراه بأم أعيننا؟ فإن هذا مبحث طويل الذيل، ثم إن العلماء قد يرجع إليهم في تحقيقه.

وإنما أود القول بأنه أولًا: لايتوقف رقي الأمة على تعلم الإنجليزية. والطريق إلى الرقي في الاعتبار

والاحـترام - فـيما أرى - هـو الرقـي المـالي. فمـن المشاهد في هذا الزمان أن الناس - إلا من شاء الله - لاينظـرون إلى العلـم والكـمال. وصـاحب المـال هـو الـذي يحتـل الأهميـة والاعتبـار في عيـون العامـة والحكـام. فلـه العـز والاحـترام، وينـال الخطابـات والألقاب، ويفوز في الأهداف كثيرا، وينال منصب حاكم المديرية ونحوه، ويشارك الحكام في التشاور والرأي، وإن لم يعرف من الإنجليزية حرفًا واحدًا. وإذا طلبـت الرقـي المـالي فخـير سـبيل إلى ذلـك هـو التجارة والصناعة. فما من أحد إلا وهو في حاجة دائمًا إلى الصانع والتاجر. وربما عشرة في المئة من عارفي الإنجليزية في طمأنينة وارتياح بال. و عشرة من التجار في قلق وهم. ولو أنهم - بدلا من تعليم الإنجليزية- اهتموا بالصنائع الإنجليزية لكان أنفع وأفيد للأمة.

ثانيـا: هَـب أن رقـي الأمـة كـامن في تعلـيم الإنجليزية، فهل كانت المدارس الرسمية في قلة حتى احتجنا إلى مدارس الإنجليز؟ فإن قالوا: إن المدارس الرسـمية تفسد الأفكـار الدينيـة، فمست الحاجـة إلى مـدارس تعليم الـدين أيـضًا. قلـت: أصـدقك، وأنـت كـذلك تـؤمن مـن أعـماق قلبك بـأن خريجي المـدارس الرسمية لم تفسد عقائدهم فسادَ معظم خريجي هـذه المـدارس الإنجليزيـة. فإن اعتذرتَ بأنها تهيئ فرص الـوعظ والـصلاة، فـاعلم جيـدًا أن أتباعـك يـستمرون على ذلك ما لم تتغير أفكارك.

وثالثا: هَب أن الحاجة ماسة إلى هذه المدراس، وهي التي تجلب الرقي في الدين والدنيا، فانظر بعين العـدل والإنـصاف، مـن هـم أحـق بـالرقي؟ هـم الأثريـاء أو الفقـراء؟ فأمـا الأثريـاء فهـم في رقـي وازدهـار مـسبقًا، وإن لم يبلـغ هـذا الرقـي المـستوى المطلوب من الرقي عندكم، غير أنه رقي من نوع ما، وفيـه كفاية لهـم. والعناية بهـم أكثر لايعـدو تحـصيل الحاصل. وأما الفقراء فهم أحق به، فلو أنهم أدخلوا أولاد الفقـراء في هـذه المـدارس، وكفلـوا حاجـاتهم، وقـاموا بتعلـيمهم وتـربيتهم، فيرتقـوا إلى المناصـب الكريمة، لـدعوا لهـم من أعـماق القلـوب، ولا أقل- إذا كانوا لايرون لقبول الدعاء معنى- من أن تنشرح صـدورهم، وهـو محبب إليكم أيضًا. وقد تبين اليوم أنـه يـصعب مـرور الفقـير بهـا، فـأين التعـاطف مـع الأمة، والنصح للمسلمين؟!

ثـم إن الأثريـاء تلقـوا العلـم، وشـهدوا الرقـي فلننظـر كـم أنفقـوا عليـه، وخاصـة مـن يتوجـه إلى الدولـة الأجنبية، وهـو عندكم عين الصلاح. فإنهم ينفقون على ذلك ما يكفي لشراء قرية برمتها أو ما لـو أنفـق في تجـارة لـصارت مـصنعًا كبـيرًا يحتـضن عـاملين في نحـو مـستوى صـلاحهم وقـدرتهم. ولنغض الطرف عن ذلك أيضًا، فليس مبلغ رقيهم إلا أن يصيروا محامين، أو ينالوا الحكومة. فإن كانوا محامين عادوا يؤذون الناس، يتربصون الخلاف بين

أخـوين مـن الأمـة فيـستغلوه في قـضاء حـاجتهم، وتحقيق أمنيتهم. فإن رجع إليهم أحد ليدافعوا عنه في قضية من القضايا أمام المحكمة، طالبوه برسوم محاماة تبلغ مئتين وأربع مئة روبية على قدر كمالهم وتمكنهم من المثول بين يدي القاضي مرةً واحدةً. فإن طلب صاحب القضية التخفيف من الرسوم غضبوا عليه وأمروا بطرده من المكتب، فاعتذر الرجل إليهم فإن صاحب الحاجة مجنون، ورضي بتقديم رسومهم المطلوبة، وجمع المال من هنا وهنا بعد معاناة ليملأ جيوبهم. ولم يكتمل النقاش والبحث في القضية في الموعد الأول في المحكمة، فضرب موعد آخر للنظر فيها، فيطالبون صاحب القضية مرةً أخرى بنفس المبلغ، وهكذا يوتَر ماله ومال قرابته في موعدين أو ثلاثة مواعيد للنظر في القضية. فهل هذا هو الرقي المزعوم حيث يخربون عشرات البيوت لعمارة بيت واحد.

وأما إذا نالوا الحكومة فعقائدهم فاسدة مسبقًا، وأصبح القبر والحشر لامعنى لهما، فكيف يخافون الله تعالى؟ فلا تحمل الحضارة والأخلاق قوة تردع الأمور الذميمة وتنفيها، وليس إلا من بركات الدين أن المرء ينتهي عن المناهي خوفًا من غضب مالكه أو خوفًا من عذاب القبر والبرزخ، وأما من كان على مثله فلايردعه الدين عنها، وأما الأخلاق فلاتحمل هذه القوة، فلاعجب أن يفعل المرء ما يشاء: يظلم، ويرتشي، ويقضي بغير الحق، ويتشفى من حقد دفين قديم. وما أحسن ما قال أحد العقلاء: لايجدر بالحكم من لايمتثل دينه. وأما أن تبلغ أخلاق أحد من الناس من الحسن ما يمنعه عن هذه المناهي، فهو أمر نادر، والنادر كالمعدوم.

والحاصل أن الإجراءات التي يتخذونها للرقي بالمسلمين في هذه الأيام كلها خراب وفساد. فكان مبدأهم في نصح المسلمين باطلا، وكذلك الوسائل والأسباب إلى نصح المسلمين غير صحيحة. وهذا ذكر الأمور التي تتعدى آثارها إلى غيرهم على سبيل الإجمال والإيجاز.

وأعرج الآن على ما يخصكم من الأمور وأضرب عليها أمثلة. فأول شيء هو إصلاح العقائد، ولاعجب أن يواجه المرء شبهات، ولكن بفضل من الله تعالى ورحمته لايعدم علماء محققين جامعين بين المعقول والمنقول يكشفون شبهاته. ولا أقل من كتابات مولانا محمد علي – حاكم المقاطعة- وهي بين أيدينا أراها تغني في كشف الشبهات الأصولية والفروعية التي تثيرها. وحذارِ أن تصر وتجمد، وانظر بعين من الإنصاف والعدل فيها، وأصلح أفكارك في ضوئها. ولاتحدثك نفسك كيف تخالف تحقيقاتك الشهيرة. ولاأظن أن طبيعتك العادلة يتسرب إليها هذا الاحتمال. وقد اعترفت بأخطاء كثيرة، مثلًا: جاء في حديث فاطمة:

«فجـاءت فاطمـة وهـي جويريـة»، فتحـرف إلى «فجاءت فاطمة هي وجويرية». فلو أصلحت أفكار اليوم وأعلنت بها لتبين كمالك المتناهي. وعاد جمهور أهل الإسلام - وهم أكثر عددا من أدعياء اتباعك- يحبونـك ويخلـصون لـك، ويـستعدون مـن أعـماق القلـوب لقبـول مـا تبـين لهـم مـن تـدابير الرقـي والازدهـار. وتُثاب في الآخرة على صحة عقائدك، وأمـن كثير مـن النـاس، وصـحت عقائـد بعـضهم؛ فإنهم يرجعون عنها لمنتهى حبهم لك وثقتهم بك حين يرونك ترجع عما كنت عليه من العقائد.

ثانيًا: لابـد مـن المواظبـة عـلى الـصلاة جماعـةً. والمواظبـة عـلى الـصلاة بـدورها فريـضة. والـصلاة جماعـةً سـنة مؤكـدة. وحـب الله ورسـوله - وهـو مقتـضى الإسـلام- إنـما يتطلـب الحـذر مـن فـوات الفريضة والسنة. وثالثًا: إصلاح اللباس، ولا أكثر الكلام عليه، وإنما أكتفي بقول وجيز، وهو ما بالهم يعيبون الرجل إذا لبس لبسة المرأة؟ فكيف تسوغ أن تلبس أمة من الدين لباس أتباع الأديان الأخرى وتتزيا بزيهم؟ ورابعًا: قد مَنَّ الله تعالى عليك بأنواع الاستطاعة. والحج فريضة بالنص القرآني. ويقتضي حب الله ورسوله ضرورة حضور كل مستطيع إلى بيت الله و زيارة المدينة انطلاقًا من حبهما، وإن لم يكن الحج فريضة وسنة في الإسلام، فما بالك إذا كان الحج فريضة والزيارة سنة. فما أقبح ألاتقوم بذلك ولا مرة في الحياة؟! هل كان يصعب عليك أن تقوم برحلة الحج والزيارة من عدن مباشرة ذهابًا أو إيابًا حين شددت رحالك إلى «لندن»؟! فتشجع اليوم وشدّ رحالك. إن الصوم والصلاة من العبادات الخافية، فلا أطلع عليها، راجيًا من الله تعالى أن تكون مواظبا عليهما، وإلا فضمَّهما إلى الفهرس المذكور آنفًا.

وحاصل القول أنك بلغت آخر عمرك، ولايصاحبك في رحلة الآخرة إلا الأعمال والعقائد، فودِّع أصحابك أيامًا، ظاهرا أيضًا أو بالقلب فحسب، واستصحب هذا الرفيق الدائم، أي أصلح عقائدك وأعمالك؛ فإنه:

إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [يونس:٤٩].

ونعم ما قاله الشاعر الأردي ما معناه:

«يا نسيم،استيقِظْ، وشُدَّ ميزرك

وارفع الفراش، فما أقصر الليل».

وأخيرًا أطلب منك أن تعذرني إذا ما صدر في هذه الرسالة ما يخالف مزاجك السامي، وأن تحمله على الجهل بمزاجك، دون العصبية والعناد، فيعلم الله تعالى أني لم أكتب إلا نصحًا وتحرقًا عليك. فإن لقي هذا الاعتذار منكم القبول - وهو المأمول- فأخبروني؛ فإنه يبعث في نفسي السرور، وإلا فلاحاجة إلى الجواب. ولكم الشكر.

السنة دعاء واستعاذة

بقلم: الأستاذ طه محمد الساكت

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول. كان يقول: «اللّهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرَم وعذاب القبر، اللّهم آت نفسي تقواها، وزكّها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها» رواه مسلم.

* * *

للدعاء في الإسلام، وهدى النبي عليه الصلاة والسلام، شأن عظيم ومقام كريم. ألم تر إلى فاتحة الكتاب أم القرآن وأعظم سورة فيه؟ شطرها الأول ثناء، وشطرها الآخر دعاء. أو لَم تر إلى الرسول ﷺ؟! لم يكتف بأن يحدثنا أن الدعاء أكرم شيء على الله تعالى، حتى حدثنا أنه هو العبادة أو هو مخ العبادة[1].

والعبادة هي منتهى الخشوع لله رب العالمين. وبحسب إخلاص العبد فيها واستقامته عليها، ترتفع درجته، وتشرف عند الله مكانته.

وفي هذا الحديث الذي استخرنا الله تعالى أن نتحف به القراء. يستعيذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعلم أمته أن تستعيذ من خمس آفات مهلكات، كلهن شر يتقى. وبلاء يستعاذ بالله منه! ثم يستعيذ صلوات الله وسلامه عليه من عذاب القبر، وكأنه عاقبة محتومة للآفات السابقة، ونذير سوء لما بعده من عذاب الآخرة ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (طه:١٢٧) ثم يضرع إلى الله تعالى أن يؤتيه ومن اتبع هداه التقوى، وأن يطهره من هذه الآفات وما إليها، ويقرن هذه الضراعة بالثناء عليه بما هو أهله، ثم يتحصن به – وهو الملجأ – من أربع بلايا، من كفيهن فقد كفى الشر كله، وضرب في الخير بسهم وفير.

وقد زاوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين كل اثنين

[1] إشارة إلى ثلاثة أحاديث رواها الترمذي وغيره: الأول عن أبي هريرة، والثاني عن النعمان بن بشير، والثالث عن أنس رضي الله عنهم.

من هذه البلايا التي عاذ بالله منها لمشاكلة بينهما. فتعوذ أول ما تعوذ من العجز والكسل، وكلاهما داء وبيل ومرض قاتل للحياة الروحية والاجتماعية؛ بل للحياة الطيبة في الآخرة والأولى. ويتفقان كلاهما في صفة سلبية وهي التخلي عن العمل، وإن كان منشأ التخلي في العجز عاهة أو نحوها، ومنشأ التخلي في الكسل التقاعد والتثاقل عن العمل مع القدرة عليه، إيثارًا لراحة البدن أو حظ من حظوظ النفس وأهوائها. ويختلفان في أن الكسلان مذموم ملوم لا عذر له، لأنه ساقط الهمة خاثر العزيمة متخلف عن الركب، بضاعته الأحلام والأماني ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف:٥٠). أما العاجز فهو معذور إلى أمد بعيد، ولا سيما عجز بمحض القضاء والقدر لايد لصاحبه فيه كالذي يولد كذلك أو الذي يصاب من حيث لا يحتسب، فأما من جنى على نفسه حتى أعجزها، أو حاد بها عن طريق الجادة حتى أتلفها فهو أعظم من الكسلان جرمًا وأقبح إثما وذمًّا! فليتق الله امرؤ في نفسه، وليجنبها بواعث العجز والكسل، وإلا فهو عضو فاسد يجب النظر في إصلاحه أو بتره قبل أن يعدو فساده على المجتمع.

وتعوذ ﷺ من الجبن والبخل، وكلاهما منع وشح، غير أن الأول شح بالنفس، والثاني شح بحبيب النفس، وهما قرينان لا يكاد يذكر أحدهما دون صاحبه، وكذلك ضداهما: الشجاعة والكرم. ومن أمثلة الاستدراك في مبادئ النحو: فلان شجاع لكنه بخيل، وذلك لأنه لا تخطر الشجاعة بالبال إلا ومعها الكرم. وتعليل ذلك هين، فإن الكرم ضرب من ضروب الشجاعة.

ومرد الشجاعة بجميع صنوفها إلى الثقة بالله أولًا ثم بالنفس ثانيًا، ومن هنا كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أشجع الناس وأكرم الناس؛ لأنهم أوثق الناس بالله عز وجل. وجود الخليل والحبيب بالنفس والمال ليس موضع ريبة ولا جدال. وكذلك ورثة الأنبياء من بعدهم، وكم ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل الله وسبيل أوطانهم، لايبتغون إلا وجه الله ولا يخشون أحدًا سواه، فأما الجبناء والبخلاء فليسوا من ورثة الأنبياء في شيء.

* * *

وتعوذ ﷺ من الهرم وعذاب القبر.

والهرم أقصى السن وأرذل العمر، والهرم على هذه الحال كسَل ثقيل على الأهل والولد، وبالحري غيرهم وكبر السن مع ثقل الظن داء يستعاذ بالله

منه، فأما مجرد الكبر، ولو جاوز المئة، مع سلامة العقل وهدوء النفس واستقامة العمل فذلك خير يطلب المزيد منه. فإذا اجتمع إلى تلك الصفات حنكة وتجربة وسداد في الرأي ورشد في السياسة ونور في البصيرة وخشية لله وحده. روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن بشر رضي الله عنه: «خير الناس من طال عمره وحسن عمله».

* * *

وعذاب القبر ونعيمه كلاهما حق، تضافرت الأدلة عليه، وصحت الرواية فيه عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في مواطن كثيرة، ولا يأبى دستور العقل أن يعيد الله تعالى حياة العبد في جسده أو في جزء منه، وأن يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، ويقال له هذا: مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة. وقاعدة أهل السنة والجماعة أن شيئًا ورد به نقل قويم ولم يمنع منه عقل سليم، وجب قبوله واعتقاده والإيمان به. وكم من شيء أثبته العلم الحديث في عالم الأحياء بعد أن أنكره قليلو البضاعة من أشباه العلماء، فكيف بهم في عالم الأموات وبضاعتهم فيه مزجاة؟! ألا إن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، فليعد امرؤ قبره كما يشاء ويختار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الدهر:٣٠).

بعد أن تعوّذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الآفات التي تهلك من يبتلى بها – فردًا كان أو جماعة – ضرع إلى الله سبحانه أن يمنح نفسه تقواها له وخشيتها منه وأن يزكيها ويجملها؛ لأنه القادر على ذلك وحده، فهو مالك أمرها ومدبر شأنها والقائم على كل نفس بما كسبت لا يسوق الخير غيره، ولا يكشف الضر أحد سواه. إن ضراعته هذه بعد استعاذته، من قبيل التحلية بعد التحلية، أو من قبيل الصحة بعد العافية.

وتزكية النفس: تطهيرها سرًا وعلانية من الخبث والدنس، في عقيدة المرء وسلوكه ومعاملته، لنفسه أو لربه، أو لأهله وعشيرته، أو لوطنه وأمته والعالم أجمع.

ولقد قام الإسلام على قواعد التطهير العام الشامل: فدعا إلى تطهير العقائد من دنس الشرك والكفر وعبادة غير الله عز وجل، وإلى تطهير العقل من الخشوع والخضوع للخرافات والأوهام والأضاليل، وتقليد الآباء والكبراء على غير هدى وبصيرة، وإلى تطهير القلب من الحقد والحسد

والغل والشحناء والبغضاء وما إلى ذلك من أمراضه الذاهبة به وبصاحبه، ودعا إلى تطهير المعاملات من الكذب والزور والرشوة والربا، والحرص والجشع والخداع والطمع وما إليها من أكل أموال الناس بالباطل والعدوان عليهم في المال أو العرض أو النفس.

بني الإسلام – ولا نقول سبق – على هذا التطهير العام الشامل الذي لم يدع رذيلة إلا هدمها، ولا نقيصة إلا محاها، ثم شيد على أنقاض هذه الرذائل مدرسة قوية الأركان، عتيدة البنيان، منهاجها الكتاب المبين، وإمامها خاتم النبيين، وبنوها خير أمة أخرجت للناس.

وليس التطهير الذي تقوم به الحكومات الرشيدة في عهودها المباركة إلا شيئًا قليلا مما حمل الإسلام عبئه. وإذا كان الدين خير ظهير للحكومات، يعينها ويؤيدها ويأخذ بيدها إلى ما ترجو من عزة وسعادة ومجد ورفعة، فما أجدرها أن تبادله معونة بمعونة، فتكون له خير نصير، تؤيده وتظهره، وتثبته وتنصره، وتتخذه في كل عمل من أعمالها منهاجًا لها وإمامًا.

فعلى بركة الله سيرى أيتها الحكومات السديدة مطهرة ومربية ومعلمة ومزكية، موقنة بأن الله هو القيوم الديان، وأنه يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠).

* * *

ولما كان النبي في أمته، والإمام في رعيته، والقائد في جنده، كالطبيب الشفيق الناصح، وكان أخوف ما يخاف على مريضه الانتكاس والعياذ بالله تعالى، عاد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ بالله من أربع آفات أخرى فيهن فساد المرء ودنسه، ومنهن يكون بلاؤه وانتكاسه. على أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتعوذ أحيانًا من هذه الأربع على حدة، فقد روى الاستعاذة منها في حديث مستقل الترمذي والنسائي عن ابن عمرو رضي الله عنهما، وكذلك أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه:

الآفة الأولى: علم لا ينفع، لأنه شر من الجهل، فإن الجاهل قد يعذر بجهله وأما العالم الذي لم ينفعه الله بعلمه فهو فتنة للناس ومضلة لهم؛ لأنه في موضع القدوة منهم، لاجرم أن علمه حجة عليه لا له وأنه أشد الناس خزيًا ومقتًا في الدنيا والآخرة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ (الصف:٢-٣).

الآفة الثانية: قلب لا يخشع لخلوه من الإيمان واليقين، ولفساده باقتراف السيئات والمعاصي، طبع الله عليه فلم يلن لذكر الله ولم يتعظ بمواعظ الله، ثم انتقل فساده إلى الجوارح؛ لأنه المهيمن عليها والمحرك لها. وفي حديث الصحيحين المعروف: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

الآفة الثالثة: نفس لا تشبع، لجشعها وطمعها، فهي وبال على صاحبها ومتعبة له، لا تدعه يتمتع بما أوتي من نعمة ومتاع، لا يتمتع بنعمة عاجلة؛ لأنه مشغول عنها بالآجلة، ولا يتمتع بنعمة آجلة؛ لأنها لم تأت بعد، لا جرم أنه الشقي المحروم الذي سلب نعمة الرضا وملئ قلبه بحب الدنيا. وحب الدنيا رأس كل خطيئة.

الآفة الرابعة: دعوة لا يستجاب لها، أو «دعاء لا يسمع» كما في الرواية الأخرى، لأن عدم الاستجابة أمارة إعراض الله عن العبد لإعراض العبد عنه، وينبغي أن يعلم أن تأخير الإجابة ليس دليلًا على رد المسألة، فقد تؤخر لأسرار إلهية، منها أن الله يحب أن يسمع صوت الداعي وتضرعه، كما أنه ليس من شروط الإجابة أن تقضى حاجة العبد نفسها، فربما ادخرها الله له في الآخرة، وربما صرف عنه من السوء مثلها. فلا ييئس العبد من روح الله، وليدع ربه صادق النية حاضر القلب طيب الكسب موقنًا بالإجابة. وقد بسطنا القول في أدب الدعاء، في شرح حديث الصحيحين «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل» فلا حاجة بنا إلى إعادته.

ذلك، وينطوي الحديث على ألطاف جمة، وإشارات كريمة، إذا لم يتسع المقام لتفصيلها كلها، فلا أقل من التنبيه على بعضها.

فمنها: أن التحصن من الآفات والبلايا، والدعوات والاستعاذة، بمنزلة الوقاية منها قبل وقوعها. ومثل الأمراض الروحية والاجتماعية كمثل الأمراض الجسمية، الوقاية في كل منها خير من العلاج، فإذا وقع شيء من هذه الأدواء، وجد إلى جانبه الأدوية التي أنزلها الحكيم الخبير ضامنة للشفاء، ومتى أصاب الدواء موضع الداء برأ بإذن الله، وما مثل الضمان الاجتماعي الذي تتباهى به الأمم بجانب هذا الضمان الإلهي إلا كمثل القشر من اللب أو كمثل الربد من الزبد ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ (الأحزاب:٤).

* * *

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(سورة النساء ٩٥-١١٠)

بقلم: رئيس التحرير

٢٣- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٥]

في الآية بدهيتان:

الأولى، فإن قلت: معلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لايستويان، فما فائدة نفي الاستواء؟

قلنا: أجيب من وجوه:

الوجه الأول: فائدته الإذكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد، ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته، فيهتز للجهاد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقته، ونحوه ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٩) أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التعلم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم. ذكره الزمخشري، والبيضاوي، و أبو السعود، والآلوسي، والشوكاني[1].

وقال ابن عاشور: ولمّا لام الله بعض المجاهدين على ما صدرمنهم من التعمّق في الغاية من الجهاد، عقَّب ذلك ببيان فضل المجاهدين كيْلا يكون ذلك اللومُ موهِمًا انحطاط فضيلتهم في بعض أحوالهم، على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة دفعًا لليأس من الرحمة عن أنفُس المسلمين. يقول العرب: «لا يستوي وليس سواءً» بمعنى أنّ أحد المذكورين أفضل من الآخر. ويعتمدون في ذلك على القرينة الدالّة على تعيين المفضّل؛ لأنّ من شأنه أن يكون أفضل. قال السموأل أوغيره:

فليس سواءً عالم وجهول.

وقال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقد يُتبعونه بما يصرّح بوجه نفي السوائية: إمّا لخفائه كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ﴾ (الحديد:١٠)، وقد يكون التصريح لمجرّد التأكيد كقوله: ﴿لَا

يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ (الحشر:٢٠). وإذ قد كان وجه التفاضل معلومًا في أكثر مواقع أمْثال هذا التركيب، صار في الغالب أمثال هذا التركيب مستعملة في معنى الكناية، وهوالتعريض بالمفضول في تفريطه وزُهده فيما هوخيرمع المكنة منه، وكذلك هو هنا لظهور أنّ القَاعد عن الجهاد لا يساوي المجاهد في فضيلة نصرة الدين، ولا في ثوابه على ذلك، فتعيّن التعريض بالقاعدين وتشنيع حالهم. وبهذا يظهر موقع الاستثناء بقوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ كيلا يحسِبَ أصحاب الضرر أنهم مقصودون بالتحريض فيَخرجوا مع المسلمين، فيكلفّوهم مؤونة نقلهم وحفظهم بلا جدوى، أو يظنّوا أنّهم مقصودون بالتعريض، فتنكسر لذلك نفوسهم، زيادة على انكسارها بعجزهم، ولأنّ في استثنائهم إنصافًا لهم وعذرًا بأنّهم لوكانوا قادرين لما قعدوا، فذلك الظنّ بالمؤمن، ولوكان المقصود صريحَ المعنى لما كان للاستثناء موقع، فاحفظوا هذا، فالاستثناء مقصود، وله موقع من البلاغة لايضاع، ولولم يذكر الاستثناء لكان تجاوز التعريض أصحاب الضرر معلومًا في سياق الكلام، فالاستثناء عدول عن الاعتماد على القرينة إلى التصريح باللفظ. ويدلّ لهذا ما في «الصحيحين» عن زيد بن ثابت أنّه قال: نزل الوحي على رسول الله وأنا إلى جنبه، ثم سرّي عنه، فقال: اكتُب، فكتبت في كَتف (لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ)، وخَلْفَ النبي ابنُ أمّ مكتوم، فقال: يارسول الله! لو أستطيع الجهاد لجاهدت، فنزلت مكانها ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية[٢]. فابن أمّ مكتوم فَهم المقصود من نفي الاستواء، فظنّ أنّ التعريض يشمله و أمثاله، فإنّه من القاعدين، ولأجل هذا الظنّ عُدل عن حراسة المقام إلى صراحة الكلام، وهما حالان متساويان في عرف البلغاء، هما حال مراعاة خطاب الذكي وخطاب الغبي، فلذلك لم تكن زيادة الاستثناء مفيتة مقتضى حال من البلاغة، ولكنها معوّضته بنظيره؛ لأنّ السامعين أصناف كثيرة[٣].

الوجه الثاني: لما عاتبهم الله تعالى على ما صدر منهم من قتل من تكلم بكلمة الشهادة، فلعله يقع في قلبهم أن الأولى الاحتراز عن الجهاد؛ لئلا يقع بسببه في مثل هذا المحذور، فلا جرم ذكر الله تعالى في عقيبه هذه الآية، وبيّن فيها فضل المجاهد على غيره إزالة لهذه الشبهة. ذكره الرازي وأبو حيان[٤].

الوجه الثالث: أنه تعالى لما عاتبهم على ما صدر منهم من قتل من تكلم بالشهادة ذكر عقيبه فضيلة الجهاد، كأنه قيل: من أتى بالجهاد فقد فاز بهذه الدرجة العظيمة عند الله تعالى، فليحترز صاحبها من تلك الهفوة؛ لئلا يخل منصبه العظيم في الدين بسبب هذه الهفوة، والله أعلم. ذكره الرازي[٥].

٢- فإن قلت ما فائدة التكرار في قوله: (وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) وقد دل عليه السابق منهما على اللاحق؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الوجه الأول: ما ذكره ابن عاشور فقال: وعُطف ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على جملة ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، وإن كان معنى الجملتين واحدًا باعتبار ما في الجملة الثانية من زيادة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فبذلك غايرت الجملةُ المعطوفة الجملةَ المعطوفَ عليها مغايرة سوّغت العطف، مع ما في إعادة معظم ألفاظها من توكيد لها. وذكره أبوحيان، والقرطبي، والشوكاني(٦).

الوجه الثاني: قال أبوحيان: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ الظاهر: أن المفضل عليهم هم القاعدون غير أولي الضرر؛ لأنهم هم الذين نفى التسوية بينهم، فذكر ما امتازوا به عليهم، وهو تفضيلهم عليهم بدرجة، فهذه الجملة بيان للجملة الأولى جواب سؤال مقدر، كأن قائلًا قال: ما لهم لا يستوون؟ فقيل: فضل الله المجاهدين، والمفضل عليهم هنا درجة هم المفضل عليهم آخرًا درجات، وما بعدها وهم القاعدون غير أولي الضرر. وتكرر التفضيلان باعتبار متعلقهما، فالتفضيل الأول بالدرجة هو ما يؤتى في الدنيا من الغنيمة، والتفضيل الثاني هو ما يخولهم في الآخرة، فنبه بإفراد الأول، وجمع الثاني على أنّ ثواب الدنيا في جنب ثواب الآخرة يسير. وذكره البيضاوي(٧).

وعن هذا المعنى عبر أبوالسعود بقوله: وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجةِ و الدرجاتِ على أن المرادَ بالتفضيل الأولِ ما خوّلهم الله تعالى عاجلًا في الدنيا من الغنيمة و الظَّفَروالذِكْرِ الجميلِ الحقيقِ بكونه درجةً واحدةً، وبالتفضيل الثاني ما أنعم به في الآخرة من الدرجات العاليةِ الفائتةِ للحصر، كما ينبىء عنه تقديمُ الأولِ وتأخيرُ الثاني وتوسيطُ الوعدِ بالجنة بينهما، كأنه قيل: وفضّلهم عليهم في الدنيا درجةً واحدةً، وفي الآخرة درجاتٍ لا تحصى، وقد وُسِّط بينهما في الذكرما هو متوسِّط بينهما في الوجود أعني الوعدَ بالجنة توضيحًا لحالهما ومسارعةً إلى تسلية المفضولِ، والله سبحانه أعلم. وذكره الآلوسي(٨).

الوجه الثالث: وقيل: المفضل عليهم أولًا غيرالمفضل عليهم ثانيًا. فالأول هم القاعدون بعذر، والثاني هم القاعدون بغيرعذر، ولذلك اختلف المفضل به: ففي الأول درجة، وفي الثاني درجات، و إلى هذا ذهب ابن جريج، و هومن لا يستوي عنده أولو الضرر والمجاهدون. ذكره أبوحيان والقرطبي - وعزاه إلى السدي، والبيضاوي، والشوكاني و البغوي، والطبري، والنسفي، والآلوسي - وتعقبه قائلًا: وفيه من

تفكيك النظم ما لا يخفى[٩].

الوجــه الرابــع: وقيــل: اختلــف الجهــادان، فـاختلف مـا فـضل بـه. وذلـك أن الجهـاد جهـادان: صـغير، و كبـير. فالـصغير مجاهـدة الكفـار، والكبـير مجاهـدة الـنفس. وعـلى ذلـك دل قولـه عليـه الـسلام: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وإنما كان مجاهدة النفس أعظم؛ لأنّ من جاهد نفسه فقد جاهد الدنيا، ومن غلب الدنيا هانت عليه مجاهدة العدو، فخصّ مجاهدة النفس بالدرجات تعظيمًا لها. ذكره البيضاوي، وأبوحيان، والآلوسي[١٠].

الوجــه الخــامس: مـاذكره أبوالـسعود: فقـال: ولعـل تكريـرَ التفـضيلِ بطريـق العطـفِ المنبـىءِ عـن المغايرة، وتقييدَه تارةً بدرجة وأخرى بدرجاتٍ مع اتحاد المفضّلِ والمفضلِ عليه حسبما يقتضيه الكلامُ ويـستدعيه حـسنُ النظـامِ، إمـا لتنزيـل الاخـتلاف العنـواني بـين التفـضيلين وبـين الدرجـةِ و الـدرجاتِ منزلةَ الاختلافِ الذاتي تمهيدًا لسلوك طريقِ الإبهامِ ثم التفسيرِ رَوْمًا لمزيد التحقيقِ و التقريرِ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [سورة هود:٥٨] كأنه قيل: فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجةً لا يقادَر قدرُها ولا يُبلَغُ كُنهُها، وحيث كان تحقّقُ هذا البونِ البعيدِ بينهما مُوهِمًا لحِرمان القاعدين، قيل: وكُلًّا وعد الله الحسنى، ثم أريد تفسيرُ ما أفاده التنكيرُ بطريق الإبهامِ بحيث يقطَعُ احتمالَ كونِه للوحْدة فقيل ما قيل، ولله درُّ شأنِ التنزيلِ[١١].

الوجــه الــسادس: وقيـل: المـراد مـن التفـضيل الأول رضـوان الله تعـالى ونعيمـه الروحـاني، ومـن التفـضيل الثـاني نعـيم الجنـة المحـسوس. ذكـره الآلـوسي، وتعقبـه، فقـال: وفيـه أن عطـف المغفـرة والرحمة يبعد هذا التخصيص[١٢].

الوجـه الـسابع: قـال الـرازي: قـال في أول الآيـة ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولايمكن أن يكون المراد من هذا المجاهد هـو المجاهـد بالمـال والـنفس فقـط، وإلا حـصل التكرار، فوجب أن يكون المراد منه من كان مجاهدًا على الإطلاق في كل الأمور، أعني في عمل الظاهر، وهـو الجهـاد بـالنفس والمـال والقلـب، وهـو أشرف أنواع المجاهدة، كما قال عليه السلام: «رجعنا من الجهـاد الأصـغرإلى الجهـاد الأكـبر». و حاصـل هـذا الجهـاد صرف القلـب مـن الالتفـات إلى غـير الله إلى الاستغراق في طاعة الله، ولمـا كـان هـذا المقـام أعلى مما قبله لا جرم جعل فضيلة الأول درجة، وفضيلة هذا الثاني درجات[١٣].

٢٤- قـال الله تعـالى: (وَإِذَا كُنـــتَ فِـــيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْـتَقُمْ طَآئِفَـةٌ مِّـنْهُم مَّعَـكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُـواْ مِـن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُـذُواْ حِـذْرَهُمْ وَأَسْـلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِيـنَ

كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا) [النساء:١٠٢]

في الآية بدهيتان:

١- فإن قلت: ما فائدة قوله: (وَاحِدَةً)؛ فإن معنى المرة مستفادة من صيغة فعلة؟

أجاب عنه ابن عاشور فقال: واستعملت صيغة المرّة هنا كناية عن القوّة والشدّة، وذلك أنّ الفعل الشديد القويّ يأتي بالغرض منه سريعًا دون معاودة علاج، فلا يتكرّر الفعل لتحصيل الغرض، وأكّد معنى المرّة المستفاد من صيغة فعلة بقوله: ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ تنبيهًا على قصد معنى الكناية؛ لئلاّ يتوهّم أنّ المصدر لمجرّد التأكيد لقوله: ﴿فَيَمِيلُونَ﴾. وذكره البيضاوي، وأبو السعود، والقرطبي[١٥].

٢- فإن قلت: تكرر الأمر بأخذ الحذر في هذه الآية والتي سبقتها، فما فائدة هذا التكرار؟

أجاب عنه أبو حيان فقال: تكرير الأمر بأخذ الحذر في الصلاة وفي هاتين الحالتين مما يدل على توكيد التأهب والاحتراز من العدو، فإنّ الجيش كثيرًا ما يصاب من التفريط في الحذر[١٦].

٢٥- قال الله تعالى: (إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا). [النساء:١٠٥-١٠٦]

فإن قيل: من المعلوم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يكون خصيمًا للخائنين، فما فائدة النهي عنه، وكان معصومًا، فما فائدة الأمر بالاستغفار؟

فالجواب: أن النهي عن الشيء لا يقتضي كون المنهي فاعلًا للمنهي عنه؛ بل ثبت في الرواية أن قوم طعمة لما التمسوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يذب عن طعمة، وأن يلحق السرقة باليهودي، توقف وانتظر الوحي، فنزلت هذه الآية، وكان الغرض من هذا النهي تنبيه النبي عليه الصلاة والسلام على أن طعمة كذاب، وأن اليهودي بريء عن ذلك الجرم.

فإن قيل: الدليل على أن ذلك الجرم قد وقع من النبي عليه الصلاة والسلام قوله بعد هذه الآية: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، فلما أمره الله بالاستغفار دلّ على سبق الذنب.

والجواب من وجوه:

الأول: لعله مال طبعه إلى نصرة طعمة بسبب أنه كان في الظاهر من المسلمين، فأمر بالاستغفار لهذا القدر، وحسنات الأبرار سيئات المقربين. ذكره الرازي.

وعن هذا المعنى عبر الآلوسي بقوله: (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ) مما قلت لقتادة أو مما هممت به في أمر طعمة وبراءته لظاهر الحال، وما قاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لقتادة، وكذا الهمّ بالشيء خصوصًا؛ إذ يظن أنه الحق ليس بذنب حتى يستغفر منه، لكن لعظم النبي ﷺ - وعصمة الله تعالى له وتنزيهه عما يوهم النقص وحاشاه - أمره بالاستغفار لزيادة الثواب وإرشاده إلى التثبت وأن ما ليس بذنب مما يكاد يعدّ حسنة من غيره إذا صدر منه عليه الصلاة والسلام بالنسبة لعظمته ومقامه المحمود يوشك أن يكون كالذنب، فلا متمسك بالأمر بالاستغفار في عدم العصمة كما زعمه البعض(١٧).

الثاني: لعلّ القوم لما شهدوا على سرقة اليهودي وعلى براءة طعمة من تلك السرقة، ولم يظهر للرسول عليه الصلاة والسلام ما يوجب القدح في شهادتهم هم بأن يقضي بالسرقة على اليهودي، ثم لما أطلعه الله تعالى على كذب أولئك الشهود عرف أن ذلك القضاء لو وقع لكان خطأ، فكان استغفاره بسبب أنه هم بذلك الحكم الذي لو وقع لكان خطأ في نفسه، وإن كان معذورًا عند الله فيه. ذكره الرازي(١٨).

الثالث: قوله ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون المراد: واستغفر الله لأولئك الذين يذبون عن طعمة، ويريدون أن يظهروا براءته عن السرقة. ذكره الرازي، والطبري، وأبوحيان (١٩).

الرابع: قال ابن عطية: وهذا ليس بذنب؛ لأنه عليه السلام إنما دافع على الظاهر، و هو يعتقد براءتهم انتهى. وذكره الثعالبي(٢٠).

الخامس: قيل: هوأمر بالاستغفار على سبيل التسبيح من غير ذنب أو قصد توبة، كما يقول الرجل: استغفر الله. ذكره أبوحيان(٢١).

السادس: وقيل: الخطاب صورة للنبي ﷺ، والمراد بنو أبيرق. ذكره أبوحيان.

وقال القرطبي: والخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمرادُ منه الذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه لوجهين:

أحدهما: أنه تعالى أبان ذلك بما ذكره بعدُ بقوله: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. والآخر: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حكمًا فيما بينهم، ولذلك كان يُعتَذر إليه ولا يَعتذِر هو إلى غيره، فدلّ على أن القصد لغيره(٢٢).

السابع: قيل: المعنى: واستغفر الله مما هممت به قبل النبوّة. ذكره أبوحيان(٢٣).

وقال البغوي: والاستغفار في حق الأنبياء بعد النبوة على أحد الوجوه الثلاثة: إمّا لذنبٍ تقدم قبل النبوة، أو لذنوب أمته وقرابته، أو لمباحٍ جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار، والاستغفار يكون معناه السمع والطاعة لحكم الشرع(٢٤).

الثامن: قال الزمخشري: واستغفر الله مما هممت به من عقاب اليهودي(٢٥).

التاسع: وقد يقال: إن ذلك من قبيل ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٥٦] ومن هنا قيل: المعنى لا تجادل أيها الإنسان. ذكره

الآلوسي[٢٦].

٢٦- قال الله تعالى: (وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا) [النساء:١١٠]

فإن قلت: من عمل سوءًا فقد ظلم نفسه، فما فائدة العطف عليه بقوله: (يَظْلِمْ نَفْسَهُ)؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن المراد بالسوء: السرقة، وبالظلم: رميه البريء. ذكره البغوي، و أبوحيان، وابن الجوزي[٢٧].

الثاني: أن المراد بالأول: الشرك وبالثاني الإثم دون الشرك. ذكره البغوي، وأبوحيان، وابن الجوزي[٢٨].

الثالث: أن المراد بالسوء القبيح الذي يسوء به غيره كما فعل طعمة من سرقة الدرع ومن رمي اليهودي بالسرقة، والمراد بظلم النفس ما يختص به الإنسان كالحلف الكاذب، وإنما خص ما يتعدى إلى الغير باسم السوء؛ لأن ذلك يكون في الأكثر إيصالًا للضرر إلى الغير، والضرر سوء حاضر، فأما الذنب الذي يخص الإنسان فذلك في الأكثر لا يكون ضررًا حاضرًا؛ لأن الإنسان لايوصل الضرر إلى نفسه. ذكره الرازي، والزمخشري، و أبوحيان، والنسفي، والبيضاوي، وأبو السعود، والآلوسي، والشوكاني[٢٩].

وعن هذا المعنى عبر ابن عاشور بقوله: وأحسنُ ما قيل في تفسيرهذه الآية: أنّ عمل السوء أريد به عمل السوء مع الناس، وهو الاعتداء على حقوقهم، وأنّ ظلم النفس هو المعاصي الراجعة إلى مخالفة المرء في أحواله الخاصّة ما أمر به أو نُهيَ عنه[٣٠].

الرابع: قيل: ومن يعمل سوءًا من ذنب دون الشرك، أويظلم نفسه بالشرك. ذكره الزمخشري، وأبوحيان، والنسفي، والبيضاوي، وأبوالسعود، والآلوسي، والقرطبي[٣١].

الخامس: قيل: السوء الذنب الصغير، وظلم النفس الذنب الكبير. ذكره أبوحيان، و أبوالسعود، والبيضاوي، والآلوسي[٣٢].

السادس: المراد بالظلم: كل ما يأثم به. ذكره أبوحيان، وابن الجوزي[٣٣].

السابع: قال ابن عطية: هما بمعنى واحد تكرر باختلاف لفظ مبالغة[٣٤].

الثامن: عَمل السوء هو العصيان، ومخالفة ما أمر به الشرع ونهى عنه. وظلم النفس شاع إطلاقه في القرآن على الشرك والكفر، وأطلق أيضًا على ارتكاب المعاصي. ذكره ابن عاشور[٣٥].

* * *

الهوامش:

(١) الزمخشري في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/٢٣٧؛ أبوالسعود ٢/٢٢٠؛ الآلوسي٥/١٢١؛ الشوكاني في تفسير الآية.

(٢) رواه البخاري في الجهاد باب قول الله تعالى: (لايستوي القاعدون....) ٢/١٠٤٥ [٢٧٦٧]

(٣) ابن عاشور في تفسيرالآية.

(٤) الرازي ١٩٢/١١؛ وأبوحيان في تفسير الآية.

(٥) الرازي١٩٢/١١.

(٦) ابـن عاشـور في تفسيرالآية؛ أبوحيـان تفسير الآيـة؛ القرطبي ٣٤٣/٥؛ الشوكاني في تفسير الآية.

(٧) أبو حيان تفسير الآية؛ البيضاوي٢٣٧/٢.

(٨) أبو السعود ٢٢٣/٢؛ الآلوسي١٢٤/٥.

(٩) أبو حيان تفسير الآية؛ القرطبي ٣٤٣/٥؛ الشوكاني في تفسير الآيــة؛ البغــوي في تفــسير الآيــة؛ البيــضاوي ٢٣٧/٢؛ الطبري١٥١/٥؛ النسفي في تفسير الآية؛ الآلوسي١٢٤/٥.

(١٠) البيــضاوي ٢٣٧/٢؛ أبــو حيــان تفــسير الآيــة؛ الآلــوسي ١٢٤/٥. وقـال: الحـديث الـذي ذكـره لا أصـل لـه كـما قـال المحـدثون. وقـال العجلـوني في كـشف الخفـاء (٥١١/١) [١٣٦٢] للشيخ/إسماعيل بـن محمـد ط: مؤسسة الرسالة، بيروت): «رجعنا من الجهاد الأصغر قالوا: وما قال جهاد القلب. قال الحافظ ابن حجر في تسديد القوس: هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن عيلة انتهى. وأقول: الحديث في الإحياء: قال العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف عـن جـابر، ورواه الخطيـب في تاريخـه عـن جـابر بلفـظ «قـدم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من غزاة، فقال عليه الصلاة والسلام: قدمتم من خير مقدم وحمرتها من الجهاد الأصغر- إلى- قالوا: وما قال مجاهـدة العبـد هـواه انتهـى، والمـشهور عـلى الألـسنة رجعنا من الجهاد الأصغر دون باقيه، ففيه اقتصار انتهى.

(١١) أبوالسعود ٢٢٣/٢.

(١٢) الآلوسي١٢٤/٥.

(١٣) الرازي ١٩٤/١١.

(١٥) ابن عاشور في تفسير الأية؛ البيضاوي ٢٤٧/٢؛ أبوالسعود ٢٣١/٢؛ القرطبي ٣٧٠/٥.

(١٦) أبو حيان في تفسيرالآية.

(١٧) الرازي ٢١٢/١١؛ و الآلوسي ١٤٠/٥.

(١٨) الرازي ٢١٢/١١.

(١٩) الـرازي ٢١٢/١١؛ والطبري ١٦٩/٥؛ وأبوحيـان في تفـسير الآية.

(٢٠) أبوحيان في تفسير الأية؛ والثعالبي في تفسير الآية..

(٢١) أبوحيان في تفسير الأية.

(٢٢) أبوحيان في تفسير الأية؛ القرطبي ٣٧٧/٥.

(٢٣) أبوحيان في تفسير الأية.

(٢٤) البغوي في تفسير الآية.

(٢٥) الزمخشري في تفسير الآية.

(٢٦) الآلوسي١٤٠/٥.

(٢٧) البغوي تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

(٢٨) البغوي تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

(٢٩) الـرازي ٢١٥/١١؛ الزمخشري في تفسير الآيـة؛ أبـو حيـان في تفـسير الآيـة؛ النـسفي في تفـسير الآيـة؛ البيـضاوي ١٥٠/٢؛ أبوالـسعود ١٥٠/٢؛ الآلـوسي١٤٢/٥؛ الـشوكاني في تفـسير الآية.

(٣٠) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٣١) وأبو حيان في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفـسير الآيــة؛ أبوالــسعود٢٣٢/٢؛ الآلــوسي١٤٢/٥؛ القرطبي ٣٧٩/٥؛ البيضاوي ١٥٠/٢.

(٣٢) الـرازي ٢١٥/١١؛ أبوحيـان في تفـسير الآيـة؛ أبـو الـسعود ٢٣٢/٢؛ الآلوسي١٤٢/٥؛ البيضاوي ١٥٠/٢.

(٣٣) أبوحيان في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

(٣٤) أبوحيان في تفسير الآية.

(٣٥) ابن عاشور في تفسير الآية.

* * *

الآثار الضارة لانفعال الغضب من وجهتي النظر الإسلامية والسيكولوجية

بقلم: **الأستاذ محمد عيسوي الفيومي**

الانفعــال حالــة وجدانيــة عنيفــة تــصحبها اضطرابات فسيولوجية، ويتخذ صورة أزمة عابرة طارئة لا تدوم وقتا طويلا، أو بتعبير آخر هو حالة جسمية ونفسية ثائرة أي يضطرب لها الإنسان كله جسميًّا ونفسيًّا وعصبيًّا.

ولا شك أن الغضب والثورة يفقدان الإنسان اتزانه ويجعلانه أقل تحكمًا في أعصابه، ويصبح من السهل وقوعه في الأخطاء، فضلًا عما يحل بالفرد من أضرار جسمية، ولقد كان – ومازال – الإسلام حريصًا على سلامة الفرد المؤمن. فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، ويتفق قول الرسول عليه الصلاة والسلام في النهي عن الغضب مع ما أسفرت عنه البحوث الحديثة، وما توصل إليه العلم عن الآثار الضارة للانفعالات الثائرة الهائجة، فلا تكاد تنجو من آثارها الضارة وظيفة من الوظائف الجسمية والعقلية.

فالانفعال العنيف يشوه الإدراك، ويعطل التفكير ويعرقل القدرة على حل المشكلات، ويضعف القدرة على التذكر، ويشل الإرادة مما يجعل الزمام يفلت من الفرد، فيندفع إلى ضروب من السلوك الصبياني أو البدائي أو غير المهذب، فترى الشخص الهادئ الرزين يلجأ حين يفحم ويرتج عليه إلى الصياح أو اللجاج والمكابرة، وإذا به أضحى عاجزًا عن الفهم. عاجزًا عن إخفاء ما تنطوي عليه نفسه من شك وارتياب أو خوف أو بغض؛ بل قد يرتد العالم الرصين، فينكص إلى مستوى التفكير الخرافي والحجة الأسطورية.

أما عن أثر الانفعال الثائر في تشويه الإدراك فحسبنا أن نشير إلى سلوك الغضبان الذي لا يرى في خصمه إلا عيوبه، ولا يسمع في كلامه إلا إهانات موجهة إليه، أو إلى سلوك الشخص الغيور الذي لا يرى في كل حديث بريء إلا أشياء ومعاني لا وجود

لها في الواقع، أو إلى سلوك المذعورين الذين يحسبون كل صيحة عليهم هي العدو المتربص بهم.

أما أثر الانفعال في القدرة على التذكر فيبدو بجلاء في نسيان الخطيب ما يريد أن يحدث به الجمهور خوفًا منهم. وكلنا يعرف أن كثيرا من الطلبة يعجزون عن تذكر الأجوبة الصحيحة في رهبة الامتحان ليتذكروها بعد خروجهم منه.

والانفعال الشديد هو العدو اللدود للتفكير الهادئ المنظم، وذلك أنه يركز ذهن المفكر، ويجمده في فكرة واحدة هي موضوع انفعاله، كما أن الانفعال يعميه عن رؤية كثير من الحقائق، ولا يتيح له الهدوء والتأمل اللازمين للتفكير السليم الذي يقتضي النظر إلى الموقف من نواح مختلفة وتحليله إلى عناصر، ووزن كل عنصر على حدة. وآية ذلك ندم المنفعل على ما قد يتخذه من قرارات أو يصدره من أحكام أو يصل إليه من نتائج انفعاله، وفي هذا يحذرنا القرآن الكريم من سرعة الانفعال بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ (الحجرات:٦).

ويؤثر الانفعال الشديد على مستوى اللغة عند الطلبة أثناء الامتحان الشفوي، فبدلًا من أن يجيبوا على السؤال نراهم يكررونه ويتكلمون كأطفال، وفي حالة الغضب يتكلم بعض الناس بلهجة مبتذلة أو بأسلوب تركوه منذ عهد بعيد يضاف إلى هذا أن الانفعال العنيف يجعل صاحبه ساذجًا سريع التصديق شديد القابلية للإيحاء. فاندماج الفرد في حشد منفعل يسارع به إلى تصديق ما يتطاير من أقوال وإشاعات. كذلك الحال أثناء الغارات الجوية.

أثر الانفعال في الأمراض الجسمية

الانفعالات حالات جسمية نفسية تقترن باضطرابات فسيولوجية مختلفة، تغشى الأجهزة الداخلية جميعًا، فضلا عن إثارة بعض الغدد الصماء التي يتصل إفرازها بالدم مباشرة، وقد يؤدي زيادة إفرازها إلى بعض الأضرار في حالة تكرار الانفعال يؤدي ذلك إلى حدوث بعض الأمراض، مثل ارتفاع ضغط الدم، أو الربو أو قرحة المعدة، والسكر، والصداع النصفي وأمراض الشريان التاجي والذبحة الصدرية والجلطة الدموية وبعض حالات الإمساك، والإسهال المزمن والتهاب المفاصل الروماتزمي، وتضخم الغدة الدرقية والطفح الجلدي والبهاق وعرق النساء إلى غير ذلك من الأمراض

الجسمية والنفسية المنشأ التي تعرف باسم الأمراض السيكوسوماتية (Psychosomatic Diseases).

ولقد دلت أبحاث دقيقة أجريت على فريق كبير من المصابين بضغط الدم الجوهري أي الذي لا ينشأ من الأسباب العضوية المعروفة، على أنهم يعانون من أزمات انفعالية، كما دلت الإحصاءات الحربية على أن قرحة المعدة والأمعاء سببت للجيوش البريطانية خسائر فادحة خلال الحرب العالمية الثانية.

وجاء في التقرير عمن أصيبوا بها أنهم شخصيات عصابية ظاهرة تعرضوا لتوترات نفسية موصولة من جراء توقع العدوان عليهم، هذه الأمراض السيكوسوماتية أمراض تتفشى في الحضارات المعقدة التي يشيع فيها الصراع والاحتكاك الشديد بين الناس والتنافس القاتل والظروف الاقتصادية القلقة والبطالة والتحرش بغريزة الجنس. إلى غير ذلك من الظروف التي تستفز الفرد، وتثير في نفسه العداوة والبغضاء والخوف، كما لوحظ بأنها بدأت تنتشر في البلاد الآخذة بأسباب التصنيع كالهند و«غرب أفريقيا».

وفي «جنوب أفريقيا» حيث تقطن قبائل الزولو لا يكاد مرض السكر يعرف لديهم، لكنه بدأ يعرف طريقه إليهم بعد انتقالهم إلى المدن الصناعية بعشر سنوات، ومما يجدر ذكره ما لوحظ من أن هناك فارقًا إحصائيا ذا دلالة بين ضغط الدم لدى زنوج أفريقية وبينه لدى الزنوج الذين يعيشون في الولايات المتحدة. وقد تأكد أنه فارق يرجع إلى نوع الحضارة لا إلى السلالة، وقد سجلت الإحصاءات بالولايات المتحدة أن أمراض القلب بمختلف أنواعها ارتفعت نسبة الإصابة بها من ١٢٪ عام ١٩٤٨ إلى ٣٢,٧٪ ١٩٦٨ كمادلت نفس الإحصاءات على أن نسبة الوفيات بأمراض الشريان التاجي الذي يغذي القلب في «إنجلترا» أقل منها في الولايات المتحدة، لكنها آخذة في الارتفاع بدرجة كبيرة، وأنها في «سويسرا» أقل منها في إنجلترا، لكنها تزداد بسرعة، فهي أمراض جسمية ترجع في المقام الأول إلى عوامل نفسية، سببها مواقف ا نفعالية؛ لذا لا يجدي في شفائها العلاج الجسمي وحده. في حين أنها تستجيب للعلاج النفسي إلى حد كبير.

وجهة نظر علم النفس في مواجهة هذه الأمراض

يؤكد علم النفس أثر العوامل النفسية والاجتماعية في جميع العلل الإنسانية دون أن يغض

مـن أثـر العوامـل الجـسمية. فهـو يهـتم بالمتاعـب الاجتماعيـة والماليـة والعائليـة، وينظـر إلى العوامـل الانفعاليـة والأزمـات النفـسية، عـلى أنهـا عوامـل حقيقيـة فعالـة في أحـداث الاضـطرابات الجـسمية كـالميكروب والـسموم عـلى حـد سـواء. إنـه ينظـر للإنـسان عـلى أنـه وحـدة نفـسية جـسمية اجتماعيـة متكاملة متضامنة، إن اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ولا شك أن النجاح في الحياة يتوقف إلى حد كبير على عوامل انفعالية، فاضـطراب الـصلات الاجتماعيـة والعلاقـات الإنسانية مرهون في المقام الأول باضطراب الحياة الانفعالية، وحسبنا أن نشير إلى أثر سرعة الاهتياج وفرط الخوف والارتياب المسرف والغيرة الشديدة في صلات الفرد بغيره، وإلى أن أغلب من يلجؤون إلى المعالجين النفسيين يعانون اضطرابات انفعالية كالعجز في ضبط نوبات الغضب أوالقلق الشديد من أشياء تافهة أو مخاوف شاذة؛ ولذا وجب على الإنسان أن يلاحظ العوامل الآتية:

أ- لا ينبغي أن تثير الفرد مثيرات الانفعال الطفلية أو مشيرات تافهة، حتى يمكن أن نعرف حجم الشخص من حجم الأشياء التي تثيره، وأن يكون متحررًا من الميول الصبيانية والاتكال على الغير والخوف من تحمل المسؤولية، وأن تعبير الفرد عن انفعالاته بصورة متزنة بعيدًا عن التعبيرات البدائية أو الطفلية للانفعال، وأن لا يتم سلوكه على أنه مقصور أو مذعور أو واقع تحت ضغط شديد. فالناضج يتشنج ولا يثور؛ بل يفرض ويرفض في هدوء وثبات وإصرار.

أما غير الناضج فتكون تعبيراته الانفعالية في العادة مشتطة مسرفة في الشدة لا تتناسب مع مثيرات الانفعال التي لا تثير في أسوياء الناس إلا انفعالات معتدلة أو لا تثير في نفوسهم شيئًا. ويعرف هذا بالاستقرار الانفعالي. القدرة على ضبط النفس في المواقف التي تثير الانفعال أي البعد عن التهور والاندفاع وتأجيل التعبير المباشر عن الانفعال بما يتيح للفرد التفكير واختيار أنسب الاستجابات، وهذا يشمل القدرة على تحمل الإحباط والحرمان، وعلى تأجيل اللذات العاجلة من أجل الظفر بلذات آجلة وأهداف أشمل وأبعد، وهذه القدرة تعوز الأطفال وكثيرًا من المجرمين.

ب- الثبات المزاجي، ويقصد به أن تكون الحالات الانفعالية رزينة لا تتذبذب لأسباب تافهة

بـين المـرح والاكتئـاب، بـين الحـزن والفـرح، بـين الضحك والبكاء بين التحمس والفتور.

ونلاحـظ أن التذبـذب الانفعـالي مـن صـفات الطفـل، فهـو يـضحك والـدموع مازالـت في عينـه، وكـذلك مـن صـفات الإنـسان البـدائي والـشخص العـصابي أي المـصاب بمـرض نفـسي. والنـضج الانفعـالي شرط مـن شروط الـصحة النفسية للفـرد؛ بـل يـراه الـبعض مرادفًـا للـصحة النفـسية، والتـي حرص الإسلام على أن يتسم المؤمن بها، وعلى أن يحيا معافًا جسميًّا ونفسيًّا وعقليًّا، حيث يدعو عمر ابـن الخطـاب رضي الله عنـه المـسلمين أن يعلمـوا أبناءهم السباحة والرماية وركوب الخيل، ولا شك أن ممارسة هـذه الرياضـات تكسب الفرد قوة بدنية وعقلية إلى جانب ما يكتسبه من قوة احتمالية.

كما حرص القرآن الكريم على حماية المؤمن مما يـؤثر عـلى قـواه العقليـة، فنهـى عـن تنـاول الخمـور بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٩٠).

ج- ودعا إلى الاتزان في كافة شؤون الحياة؛ بل إن هناك قيمة وقائية لممارسة بعض العبادات – مثل الـصلاة خمـس مـرات في اليـوم – التـي تعمـل عـلى تشكيل الجهـاز العـصبي في صـورته المتزنـة في عمليـة الاسترخاء التي تفيد في العلاج السلوكي الذي يعني إبدال عادة سيئة بعادة مفضلة أي التخلص من عادة الثورة والغضب عن طريق ممارسة بعض العبادات خـصوصًا؛ لأن الحيـاة تعمـل عـلى تنبيـه المـستقبلات الحسية العـصبية خمـس مـرات في اليـوم ممـا يـؤدي إلى الإنعـاش وتجديـد النشاط، كـما أن الوقـوف بين يـدي الخالق ينمي أكبر فكر تخيلي، مما يجعل الإنسان أكثر قـدرة عـلى مواجهـة المـشكلات، لـيس مـن المنظـور السطحي، وإنما من المنظور المجسم عديد الأبعاد، ولا ننـسى أن التـسبيح وذكـر آيـات قرآنيـة محـددة وتكـرار تلـك الكلـمات آلاف المـرات يـؤدي لإزالـة أكبر قدر من القلق. ومما لا شك فيه أن الصوم أكبر وسيلة فعالـة لتـدريب الإرادة والثقـة بـالنفس، وهمـا مـن دعامـات الشخصية السوية والأساس العلمي، هنـا يظهـر في أن حرمـان الإنـسان مـن الطعـام ١٤ سـاعةً أو أكثـر يجعلـه يـتحكم في سـلوك آخـر، لأن الحرمان من الطعام أشد أنواع الحرمان. وليس معنى ذلـك أن يـصبح الإنـسان متبلـد الإحـساس، ولكنهـا دعوة إلى الاتزان انفعاليًّا.

القراءة المقبولة والمردودة

بقلم: فضيلة الشيخ عبد الفتاح القاضي

ذكر علماء القراءات قاعدة تعرف بها القراءات المقبولة، وتميز عن غيرها من القراءات الشاذة المردودة، وهذه القاعدة هي: كل قراءة وافقت اللغة العربية، ووافقت رسم أحد المصاحف العثمانية، وثبتت بطريق التواتر، نقول: كل قراءة اجتمعت فيها هذه الأركان الثلاثة: موافقة اللغة، وموافقة أحد المصاحف، وثبوتها بطريق التواتر هي القراءة التي يجب قبولها ولا يحل جحدها وإنكارها، وهي من جملة الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم. ومتى لم تتحقق هذه الأركان كلها أو بعضها في قراءة فهي قراءة شاذة مردودة، وينبغي أن يعلم أن أهم هذه الأركان هو الركن الثالث والركنين الأولين لازمان له؛ إذ إنه متى تحقق تواتر القراءة لزم أن تكون موافقة للغة العرب، ولأحد المصاحف العثمانية، فالعمدة هو التواتر. ومعنى قولهم: وافقت اللغة العربية أن تكون موافقة لوجه من وجوه النحو سواء أكان أفصح أم فصيحًا، فلا يشترط أن تكون على أفصح الأوجه، ولذلك يقول الإمام الداني: وأئمة القرآن لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل والرواية إذا ثبتت عنهم لايردها قياس عربية، ولافشو لغة؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها.اهـ

ومعنى قولهم: ووافقت أحد المصاحف أن تكون ثابتة ولو في بعضها، كقراءة: «وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ» (آل عمران:١٣٣) بحذف الألف، فهي ثابتة كذلك في المصحف المدني والشامي. وقراءة «وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ» (آل عمران:١٨٤) بزيادة الباءين، فهي ثابتة في المصحف الشامي. وقراءة: «تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ» (التوبة:١٠٠) في الموضع الأخير، منها بزيادة لفظ «مِنْ»، فهي ثابتة في المصحف المكي وهكذا، وموافقة المصاحف أو بعضها قد تكون تحقيقية، وهي الموافقة الصريحة، كقراءة «مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ» (الفاتحة:٣) بحذف الألف، فهي موافقة تحقيقًا لسائر المصاحف؛ لأن الألف محذوفة في جميعها، وقد تكون الموافقة تقديرية احتمالية، كقراءة الآية المذكورة بإثبات الألف، فهي موافقة للرسم تقديرًا واحتمالا على معنى أن إثبات الألف على احتمال وتقدير أنها

ثابتة، وحذفت في الرسم اختصارًا كما في مالك الملك؛ فإنها قرئت بإثبات الألف للجميع مع حذفها اختصارًا في سائر المصاحف، ومعظم القراءات موافقة للرسم صراحة وتحقيقًا؛ لأن المصاحف كتبت مجردة من النقط والشكل، فكانت محتملة لما ورد من القراءات نحو «القدس» بالضم والإسكان، و«يعملون» بالغيبة والخطاب، و«ننشرها» بالزاى والراء، و«هيت لك» بالهمزة والإبدال والفتح والضم وهكذا.

والتواتر نقل جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب عن جماعة كذلك من أول السند إلى منتهاه إلى رسول الله ﷺ هذا، وقد جنح الشيخ مكي ابن أبي طالب وتبعه المحقق ابن الجزري إلى الاكتفاء بصحة السند، وجعلاه مكان التواتر، قال الإمام النويري في شرح الطيبة: وهذا قول حادث مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين وغيرهم؛ لأن القرآن عند الجمهور من أئمة المذاهب الأربعة: منهم الغزالي، وصدر الشريعة، وموفق الدين المقدسي، وغيرهم هو ما نقل بين دفتي المصحف نقلا متواترًا، فالتواتر جزء من الحد، فلا تتصور ماهية القرآن إلا به، وعلى هذا لا بد من حصول التواتر عند أئمة المذاهب الأربعة لم يخالف منهم أحد فيما علمت بعد الفحص الزائد، وصرح به جماعة لا يحصون، منهم ابن عبد البر وابن عطية وابن تيمية، والنووي والأذرعي والسبكي والزركشي وابن الحاجب وغيرهم.

وأما القراء فأجمعوا أول الزمان على ذلك، وكذلك في آخره، ولم يخالف من المتأخرين إلا أبو محمد مكي، وتبعه بعض المتأخرين، ومن كلام علماء القراءة الدال على اشتراط التواتر ما صرح به الإمام الجعبري في شرح الشاطبية حيث يقول: (ضابط كل قراءة تواتر نقلها ووافقت العربية مطلقًا ورسم المصحف ولو تقديرًا، فهي من الأحرف السبعة، وما لم يجتمع فيه ذلك فشاذ) اهـ. ببعض تصرف. إذا علمت هذا فالذي توفرت فيه الأركان الثلاثة المذكورة إنما هي القراءات العشر فحسب.

قال النويري: أجمع الأصوليون والفقهاء على أنه لم يتواتر شيء مما زاد على القراءات العشر، وكذلك أجمع عليه القراء أيضًا إلا من لا يعتد بخلافه اهـ، وقال الإمام ابن الجزري في منجد المقرئين: والذي جمع في زماننا الأركان الثلاثة هو قراءة الأئمة العشرة التي أجمع الناس على تلقيها بالقبول. وقال أيضًا في الكتاب المذكور: وقول من قال: إن القراءات المتواترة لا حد لها إن أراد في زماننا فغير صحيح؛ إذ لا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء العشرة، وإن أراد في الصدر الأول، فيحتمل إن شاء الله تعالى. اهـ، ويؤخذ من هذه النقول أن القرآن لا يثبت إلا بطريق التواتر، وأن التواتر لم يتحقق إلا في القراءات العشرة، وعلى هذا فكل قراءة وراء العشرة لا يحكم بقرآنيتها؛ بل هي قراءة شاذة لا تجوز القراءة بها لا في الصلاة ولا خارجها. قال

الشيخ محي الدين النووي: ولا تجوز القراءة في الصلاة ولا في غيرها بالقراءات الشاذة وليست قرآنًا؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر. وأما الشاذة فليست متواترة، فلو خالف وقرأ بالشاذ أنكر عليه، سواء قرأ بها في الصلاة أو غيرها، هذا هو الصواب الذي لا معدل عنه، ومن قال غيره فهو غالط أو جاهل اهـ. وقد نقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لايجوز القراءة بالشاذة، وأنه لا يصلي خلف من قرأ بها، وقال ابن الصلاح: وهو ممنوع من القراءة بما زاد على العشر منع تحريم لا منع كراهة في الصلاة وخارجها. وكذلك صرح ابن الحاجب وابن السبكي بتحريم القراءة بالشاذة، واستفتى الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني عن حكم القراءة بالشاذ فقال: تحرم القراءة بالشاذ وفي الصلاة أشد، ولا نعرف خلافًا بين أئمة الشافعية في تفسير الشاذ أنه ما زاد على العشر؛ بل منهم من ضيق فقال ما زاد على السبع اهـ.

والحاصل أن القراءة إن خالفت العربية أو الرسم فهي مردودة إجماعًا. ولو كانت منقولة عن ثقة مع أن ذلك بعيد؛ بل لا يكاد يوجد، وإن وافقت العربية في الرسم ونقلت بطريق التواتر فهي مقبولة إجماعًا، وإن وافقت العربية والرسم ونقلت عن الثقات بطريق الآحاد فقد اختلف فيها، فذهب الجمهور إلى ردها وعدم جواز القراءة بها في الصلاة وغيرها، سواء اشتهرت واستفاضت أم لا. وذهب مكي بن أبي طالب وابن الجزري إلى قبولها وصحة القراءة بها بشرط اشتهارها واستفاضتها، أما إذا لم تبلغ حد الاشتهار والاستفاضة فالظاهر المنع من القراءة بها إجماعًا.

ومن هنا يعلم أن الشاذ عند الجمهور ما لم يثبت بطريق التواتر، وعند مكي ومن وافقه ما خالف الرسم أو العربية ولو كان منقولًا عن الثقات، أو ما وافق الرسم والعربية، ونقله غير ثقة أو نقله ثقة، ولكن لم يتلق بالقبول ولم يبلغ درجة الاستفاضة والشهرة.

وبناءً على هذا فالقراءات التي انفرد بنقلها الأئمة الأربعة أو أحدهم أو راوٍ من رواتهم لاتجوز القراءة بها مطلقًا على رأي الجمهور ولو وافقت العربية والرسم؛ لأنها لم تنقل بطريق التواتر.

وعلى رأي مكي وابن الجزري تجوز القراءة بما وافق العربية والرسم منها، حيث كان صحيح السند وظفر بالشهرة والاستفاضة والتلقي بالقبول.

وإذ قد علمت أن القراءة الشاذة لا تجوز القراءة بها مطلقًا فاعلم أنه يجوز تعلمها وتعليمها، وتدوينها في الكتب، وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى، واستنباط الأحكام الشرعية منها على القول بصحة الاحتجاج بها والاستدلال بها على وجه من وجوه اللغة العربية. وفتاوى العلماء قديمًا وحديثًا مطبقة على ذلك. والله تعالى أعلم.

أدب الاختلاف مع العلماء

بقلم : **الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي** -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-
تعريب: الأستاذ عاذب أشرف الأعظمي (*)

أيّها القارئ الكريم، إذا وقع بينك وبين عالمٍ اختلافٌ في مسألةٍ من مسائل الدِّين، أو وجدتَ عالِمًا يخالفك فيها، فاعلم أنّ مجرّد الاختلاف ليس بمذموم؛ بل هو جائزٌ ما دام ناشئًا عن اجتهادٍ صادقٍ وتحقيقٍ أمين. أمّا سوءُ الأدب، أو الاستهزاءُ والسخرية، فذلك محرَّمٌ على كلِّ حال؛ لأنّه يجرّ إلى فساد الدِّين وضياع روح الأخوّة. فالاختلافُ في ذاته قد يكون مظهرًا من مظاهر التناصح والتواصي بالحق، بينما قلّةُ الأدب تُنافي حقيقة الدِّين. فالمشروع هو ما وافق شرعَ الله ورسوله، والممنوع ما كان منحرفًا عن سبيل الحق.

ولذلك فاختلافُ الرأي حقٌّ مُتاحٌ لكل أحد؛ بل قد يجوز حتى مع أنبياءِ اللهِ - عليهم الصلاة والسلام - في مجال المشورة والرأي الشخصي، وأمّا الأحكامُ الشرعية المنصوص عليها في القرآن أو السنّة النبوية، فليست مساغًا للرأي أو الجدال. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦).

ففي أحكامِ الشريعة إذا بلّغها رسولُ الله ﷺ أو أمر بشيء أو نهى عنه بصراحة، فلا يسوغُ التردّد والتأويل فضلًا عن الردّ والامتناع عنها. أمّا إذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا رأيي»، فلا إثم على من تركه أو رفض قبوله. ومن هنا يتبيّن أنّ الاختلاف مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبول المشورة والرأي الشخصي أو رفضهما إذا لم ينصّ عليه الشارع أمرًا أو نهيًا – لا يوجب إثمًا ولا ملامة، فإذا كان الاختلاف في الآراء مع العلماء والأولياء فأولى أن لا يكون فيه بأس، غير أنّ سوء الأدب أو الإزراء لا يُسمح به البتّة؛ إذ العالمُ – وإن اختلفتَ معه – نائبٌ عن رسول الله ﷺ، وتعظيمُ نائب الرسول واجب.

كان الإمام الشافعي–رَحِمَهُ ٱللَّهُ– يخالف الإمام أبا حنيفةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كثير من المسائل، ولكن لم يخطر بباله أدنى مظهرٍ من الاستخفاف أو قلّة الأدب تجاه الإمام أبي حنيفة. وكما أنّ أبا حنيفةَ واجبُ التعظيم،

(*) أستاذ الأدب العربي بمدرسة شاهي/ مراد آباد.

فكذلك الشافعيّ، فإن كليهما شمسٌ مشرقة وقمر نيّر، منهما يتفجّر النور وتُستجلب البركات، ولا يجوز بحالٍ من الأحوال أن يدخل قلبَ المسلم شيءٌ من الغلظة أو الاستهانة بحقّ أحدهما.

إنّ قلّةَ الأدب أو الاستهزاء علامةٌ على الجهل ودليل عليه. وقد قصّ الله علينا خبرَ موسى عليه السلام مع قومه حين أمرهم بذبح بقرةٍ ليُبعَث القتيلُ بلمسِ بعض لحمها، فقالوا استنكارًا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، فأجابهم موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. أي أنّ الهزو والتمسخر خُلُقُ الجاهلين، ولا يليق بأحد من العامة فضلًا عن العلماء أن يسيروا على سبيل الجاهلين، ويسلكوا مسلكهم.

موقف الشيخ أشرف علي التهانوي

وقد رأيتُ أنّ الشيخ الجليل أشرف علي التهانوي –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– كان يختلف مع «مولانا أحمد رضا خان» (مؤسس الطائفة البريلوية في الهند) في مسائل شتّى؛ كمسألة القيام عند ذكر النبي ﷺ، والاحتفال بمولده، وعقد الأعراس، وغيرها. ومع هذا الخلاف المتعدد الجوانب، كان إذا جرى ذكرُه في مجلسٍ قال: «مولانا أحمد رضا خان صاحب» بزيادة لفظ «مولانا» (الذي هو من الألقاب التعظيمية في ديارنا الهندية)، فذات مرّة جاء رجل وذكره في مجلسه، اكتفاءً باسمه «أحمد رضا خان»، دون أن يلقّبه بـ«مولانا». فلم يلبث أن أخذه الغضبُ كل مأخذ، وأنكر عليه بشدّة، وقال: «لاشك أننا نخالفه في كثير من المسائل، إلا أن ذلك لا يعني أبدًا أن نتجرأ على إهانته أو الانتقاص من شخصه، إنه عالِمٌ من العلماء، ولا شكّ. ولا يجوز مطلقًا أن تُهانَ مناصب العلماء أو يُنتقص من حرمتهم. إنّ اختلاف الرأي شيء، وقلّة الأدب والإهانة شيء آخر».

لقد استنكر الشيخ التهانوي –رَحِمَهُ ٱللَّهُ– ترْكَ كلمة «مولانا» عند ذكره، وعدَّ ذلك استخفافًا لا يليق. وكان من آداب مجلسه أنّه إذا ذُكر فيه اسمُ أيّ عالمٍ من العلماء – وإن كان من أشدّ المعاندين – لزم عنده التأدب معه؛ لأنّ التزام الأدب لا يجوز التقصير فيه بحال من الأحوال.

سلوك الأئمة المجتهدين

كان مِن دَيْدَنِ الأئمّة المجتهدين أنّهم – مع ما بينهم من الاختلاف في الفروع – لم ينقصوا شيئًا من الأدب والتعظيم بعضهم لبعض. فقد رُوي أنّ الإمام الشافعي رحمه الله لما قَدِم بغداد، حضر ضريحَ الإمام أبي حنيفة – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –، وكان مذهبه – الإمام أبي حنيفة – أن تُقال «آمين» بعد الفاتحة سرًّا، بينما الشافعي يقول بأن الجهرَ بالتأمين أولى وأفضل. ومع ذلك، حين صلّى الإمام الشافعي في مسجد الضريح قال «آمين» خافتًا، ثم علّل قائلاً: «استحييتُ أن أُخالف اجتهاد صاحب هذا المرقد

وأنا بجواره». فكان هذا منتهى الأدب والوفاء، حيث ترك الإمام الشافعي العمل بما يراه أفضلَ، وعمل بما يقوله الإمام أبو حنيفة، مراعاةً له مع كونه ميِّتًا في القبر.

موقف الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله مع مَن كفّره

وقد رُوي عن الإمام الكبير، الشيخ محمد قاسم النانوتوي – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – أنّه كان نازلًا بدلهي، ومعه نفرٌ من خواصّ تلامذته؛ منهم شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والشيخ أحمد حسن الأمروهي، والحاج أمير شاه خان – رحمهم الله –. وذات يوم قال الشيخ أحمد حسن في جلسةٍ مع أصحابه: «إنّ إمام مسجد «لال كُنوان» يُحسن القراءةَ في الصلاة، فلو صلّينا غدًا صلاةَ الصبح خلفه»، فغضب شيخ الهند وقال بشدّة: «أمَا تستحيون؟ أيُعقَل أن نصلّي خلف رجلٍ يرمينا بالكفر ويتجرّأ على تكفير أستاذنا الجليل؟». فبلغت هذه الكلمات مسمعَ الإمام النانوتوي رحمه الله، فخرج في صبيحة اليوم التالي مع جميع تلامذته، وأدّوا صلاة الصبح خلف ذلك الإمام نفسه.

فلمّا سلّموا، التفت المصلّون متعجّبين، وسألوا عن هؤلاء الغرباء، فقيل: «هذا مولانا محمد قاسم النانوتوي، ومعه تلامذته الكرام: شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والمحدّث أحمد حسن الأمروهي». فاشتدّت دهشة الإمام، فإنه كان يداوم على تكفير الإمام النانوتوي – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – ليلَ نهارَ، فإذا به يرى أن الشيخ النانوتوي يصلّي وراءه. فتقدّم بنفسه وصافحه خجلًا وقال: «يا شيخ، لقد كنتُ أُكفّرك دائمًا، أمّا الآن فأنا في غاية الخجل». فأجابه الإمام النانوتوي رحمه الله بمنتهى الحِلم: «لا بأس أيها الإمام؛ بل إنّي أقدّر غيرتك الدينية وأُجِلُّها بأعماق القلب، وقد ازدادت مكانتك في قلبي؛ لأنّك لما بلغك أنّي أُسيء إلى شخصية رسول الله ﷺ، كانت غيرتك الإيمانية تقتضي ما صنعتَ. وإنّما اللوم أنّك لم تتحقّق من خبر الإساءة بالنسبة لي، فكان الواجب التثبّت قبل إطلاق الحكم. أما الآن فأقول لك صريحًا: إنّي أرى الكفرَ لكل من يَمسّ مقامَ النبي ﷺ بأدنى انتقاص، وأَحْكمُ عليه بالخروج من ملّة الإسلام. وإن لم تصدّقني فأنا الآن أجدّد إيماني بين يديك وأَشهد أن لا إله إلا الله». فما كان من ذلك الإمام إلا أن خرّ على قدميه باكيًا، نادمًا.

ومن هنا يتجلّى أنّ هؤلاء الأعلام كان الأدبُ والتواضعُ لله قد رسخ في قلوبهم رسوخًا لم يترك مجالًا لهوى النَّفس أو حظوظها. فلم يعرفوا شيئا من التهكّم أو الاستهزاء؛ بل كانوا يلتمسون للخصوم محامل صحيحة، حتى قالوا: «إنّ مَن كفّرنا فذلك من قوّة غيرته على الدِّين؛ غير أنّ الواجب كان التحقيق قبل الحكم». هل نحن فعلاً من المستخفّين

برسول الله ﷺ أم نحن من أحبّائه؟ فالتحقيق مقدّمٌ على إطلاق الأحكام. فالمقصود أنّ الأدب أساسُ الدِّين، كما قال العارف الرومي ما معناه:

«نسأل الله تعالى التوفيق لالتزام الأدب، فمن حُرم الأدب حُرم القَبول عند الله تعالى».

وقد شاع في زماننا التباغضُ وسوءُ الأدب بسبب العصبيّة والتحزّب، وصار التهكّمُ والسبّ والتشنيع على العلماء أمرًا هيّنًا، وهذا مناقضٌ للدِّين. فلا بُدّ أنك – أيها القارئ الكريم– إذا اختلفتَ مع عالمٍ، فإن كنتَ من أهل العلم فواجبٌ عليك تعظيمُه، وإن كنتَ من أتباع عالمٍ، وهو يتّبع عالمًا آخر، فعليك أن تعمل بتحقيق إمامك ومتبوعك، ولا يجوز لك البتّة أن تسخر أو تحُطَّ من شأن متبوعه وإمامه؛ بل الأولى أن تقول: لعلّ له حُجّةً لم تَبلُغْنا، أو دليلاً لم يَتّضح لنا، وما يَراه فمَقبولٌ عند الله تعالى. فالمجتَهِد قد يُخطِئ، ولكن خطأُه غيرُ موجبٍ للعِتاب والعذاب؛ بل قد تقرّر في الشريعة أنّ المجتَهِد إذا أخطأ فله أجر، وإذا أصاب فله أجران.

وقد كَثُرت السُّخرية في زماننا بسبب الخلافات الفرعيّة، وهذا ممّا يُناقضُ الدِّين ويُنافيه. فالواجب أن يعمل كلّ امرئ بما أدّاه إليه اجتهاده أو اجتهادُ إمامه، مع حفظ الاحترام للآخرين، وعدم خرق حجاب الأدب، فإنّ ذلك من كمال العقل ورسوخ الإيمان.

لماذا يتحول اختلافنا إلى خصومة وازدراء؟

لقد وُجدت بين الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – اختلافات كثيرة في مسائل اجتهادية، لكن لم تنقص ذرة من المحبّة والحرمة فيما بينهم. وكذلك الأئمّة المجتهدون اختلفوا كثيرًا، لكن لم يقع بينهم ما يخلّ بالأدب. فدلّ ذلك أنّ خصومات الناس في هذا الزمان ليست من طبيعة المسائل؛ بل من نفوسهم وأهوائهم، اتخذوا المسائل الشرعية ذريعةً لإظهار حظوظ النفس، ولو كانت طبيعةُ المسائل تؤدي إلى النزاع، لكان الصحابة أولى بالخصومة، ثم التابعون، ثم الأئمّة. لكنّ الواقع خلاف ذلك: الاختلاف موجود، والأدب محفوظ.

وأما الاختلاف الذي يؤدي إلى الخصام والنزاع، فنُسمّي ذلك اختلافَ الرأي، وهو في الحقيقة مَنفَذٌ لإخراجِ ما في الأنفُس من عواطِفَ وشحناء. وأنا أقول دائمًا: إنّما الشيءُ الذي يَستحقُّ النِّزاعَ والمشاجَرة هو الأملاكُ والدُّورُ والعقارات. ولكن لما سُلِب المسلمون هذه الأموالَ والديارَ والسّلطانَ، التَفَتوا إلى الدِّين فجعلوه ساحةً للنِّزاع، واتّخذوا المسائلَ الشّرعيةَ ذريعةً للخصام.

سخرية قاضٍ نصراني من المسلمين على اختلافهم

وقد وقع أنْ تنازع الأحناف وأهل الحديث (اللامذهبية) حول مسألة «آمين» في الصلاة: أهو بالجهر أم بالسرّ؟ فاشتدّ النزاع حتى تحوّل إلى ضربٍ

بالعصيّ وجرحٍ للرؤوس. فُرفع الأمر إلى قاضٍ إنجليزي نصراني كان حاكمًا آنذاك. فلمّا تبين له أنّ الخلاف إنّما هو في رفع الصوت بـ«آمين» أو خفضه، تعجّب وقال: «وهل «آمين» عقارٌ من العقارات أو دارٌ من الدُور حتى تتقاتلوا عليها؟ إنما هي مجرّد كلمة، فليعمل كلٌّ بما بلغته من السنّة».

ثم قضى لهما قائلا: «تبيّن لي من النظر في القضيّة أنّ للمسلمين ثلاث «آمينات»: «آمين بالجهر»، و«آمين بالسرّ»، و«آمين بالشرّ» الذي يجلب الشر والنزاع. ولذلك أرى أن أعاقب الفريقين معًا».

وبهذا القرار – وإن كان صادرًا عن نصراني – أشار إلى حقيقة بليغة: أنّ مسائل الخلاف لم تُشرع للخصام والعداوة، وإنّما لإعمال النظر والاجتهاد على ضوء النصوص. وإنّما الداء في فسادِ القلوب؛ إذ جعل المسلمون المسائل الشرعية أداةً للنزاع والتشتت، فغدت كلّ مسألةٍ دينيّة وسيلةً للخصومة والتحزّب.

القول الفصل في مسائل الخلاف

إذا كان الخلاف في مسألةٍ اجتهادية، فبيانها يكفي، ولا موجب للخصام. فكلٌّ منّا سيُسأل في قبره وحده، فما وجهُ السخرية من غيره أو الاستخفاف به؟ عليك أن تُبلّغ ما تعتقده حقًّا، فإذا أديتَ واجب الأمر بالمعروف فقد برئتْ ذمّتُك. فإن لم يقبل الآخر، فذلك شأنه، وعند الله حجّتُه، وهو المسؤول عنها، لا أنت. ثمّ إنّ الإلزام بقبول الرأي ليس من الدين، فكيف بالفروع والمسائل الاجتهادية؟ ومع ذلك نرى في زماننا أنّ الناس يفتحون باب النزاع لأدنى خلافٍ فرعيّ، فتتولّد الخصومات بين المسلمين، وتذهب قوّتهم أدراج الرياح.

نعم، في أصول الدين – كالصلاة، والصيام، والزكاة – يجوز التشديد والتأكيد؛ لأنّها من القطعيات. أمّا الفروع الاجتهادية فليست محلَّ دعوةٍ إلزامية. فمثلاً، مسائل المذاهب الفقهية – كالحنفي والشافعي – إنّما هي اجتهادات ترجيحية، وليست مذاهب تبليغية. فلا يَصحّ أن يقف خطيبٌ على المنبر ويقول للناس داعيًا لهم: «كونوا شافعية ولا تكونوا حنفية». فهذا قلبٌ للترجيحات إلى دعوةٍ إلزامية لا مسوّغ لها؛ بل حقيقة الأمر أنّ كلّ مجتهد إنما يبيّن ما يراه واجبًا أو أفضل، ويترك للآخرين النظر والاجتهاد.

وللأسف، قد غلبت في زماننا الوقاحة، وظهرت الجرأة على العلماء، وكثر الاستخفاف بهم والعدوان عليهم. ومن ثَمَّ سُقتُ هذه الكلمات نصحًا وموعظةً، راجيًا من الله تعالى أن يوفّقني وإيّاكم للعمل بها. اللّهم افتح لنا أبواب الخير، واختم لنا بخاتمة الخير.

* * *

مكة المكرمة

أسماؤها – صفاتها – فضلها – حرمتها

بقلم: الأستاذ عبد الحميد حجازي

أظل العالم ميلاد محمد بن عبد الله ﷺ، أعظم نسمة اصطفاها الله تعالى، لخير الإنسانية ومجدها، وانتشالها من وهدة الشرور والآثام، وتعبيد سبل العزة والكرامة أمامها، لتقطع مرحلة الدنيا آمنة مطمئنة لاتزعجها مخاوف الضلال، ولا معاطب المفاسد، وتصل إلى الآخرة غير وجلة مما أعد فيها من العذاب الأليم للعصاة الفجار، مؤملة في النعيم المقيم المعد للتقاة الأبرار.

وإن الحديث في هذه المناسبة الجليلة لأنسب أن يطوف حول مكة المكرمة مستهل النبي الأمين، ومربع نشأته وصباه، وقبلة المسلمين، ومتوجههم بكرة وعشيًا.

والحديث عن مكة طويل متشعب، ولكنا سنسرد ما يسمح به المقام، وفي كتاب «شفاء الغرام، بأخبار بلد الحرام» – لأبي الطيب محمد المالكي. و«تاريخ مكة» – للإمام الأزرقي، و«بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب» غنية لمن يتشهى المزيد.

وقد آثرت أن أطرف القراء بما ذكره هؤلاء الأعلام عن مكة، فنقلت إليهم تلخيصًا لما سجلوه في كتبهم المشار إليها، لعلنا نعلم ما لا يصح أن نجهله عن بلد تهوى إليه أفئدة الإنسانية المتدينة العاقلة:

فقد ذكر الله مكة في كتابه الكريم باسمين: (مكة، وبكة) فقال جل شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾(الفتح:٢٤)، ولفظ مكة مأخوذ من قولهم: تمككت المخ من العظم تمككًا إذا استخرجته منه؛ لأنها تمك الفاجر عنها، وتخرجه منها على ما حكاه الأصمعي، وأنشد قول الراجز في تلبيته:

يا مكة، الفاجر مكي مَكا

ولا تمكي مذحجًا وعكا[1]

وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ

لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ (آل عمران:٩٦-٩٧)، وذكر الأصمعي أيضًا أنها سميت بكة؛ لأن الناس يبك بعضهم بعضًا فيها، أي يدفع، وأنشد قول الراجز:

إذا الشريب أخذته أكه

فخله حتى يبك بكه[٢]

واختلف الناس في هذين الاسمين، فقال قوم: هي لغتان، والمسمى بهما واحد، لأن العرب تبدل الميم بالباء، فتقول: ضربة لازم، وضربة لازب، لقرب المخرجين، وهذا قول مجاهد، وقال آخرون: بل هما اسمان، والمسمى بهما شيئان، لأن اختلاف الأسماء موضوع لاختلاف المسمى، ومن قال بهذا اختلف في المسمى بهما على قولين، أحدهما: أن مكة اسم البلد كله، وبكة: البيت، وهذا قول إبراهيم النخعي، ويحيى ابن أبي أيوب. والثاني أن مكة الحرم كله، وبكة المسجد، وهذا قول الزهري، وزيد بن أسلم.

وحكى مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: كانت مكة في الجاهلية تسمى (صلاحًا) لأمنها، وأنشد قول أبي سفيان بن حرب بن أمية:

أبا مطر هلم إلى (صلاح)

فيكفيك الندامى من قريش

وتنزل بلدة عزت قديمًا

وتأمن أن يزورك رب جيش

فتأمن وسطهم وتعيش فيهم

أبا مطر هديت بخير عيش

وحكى مجاهد: أن من أسمائها (أم رحم)، و(الباسة)، فأما – أم رحم – فلأن الناس يتراحمون فيها، ويروى (أم زحم) من المزاحمة، وأما – الباسة – فلأنها تبس من ألحد فيها، أن تحطمه وتهلكه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ (الواقعة:٥)، ويروى (الناسة) بالنون، ومعناه أنها تنس من ألحد فيها، أي تطرده وتنفيه، وكانت تسمى (التامسة)[٣]، لاتقر ظلمًا ولا بغيًا، ولا تبقي فيها أحدًا من الملحدين إلا أخرجته، وكان أبو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وغبان وخزاعة حلولا حول مكة، فأذنوهم القتال فاقتلوا، فجعل الحارث بن عمر بن مضاض الأصغر يقول:

لاهم إن جر همًا عبادك

الناس طرف، وهم تلادك[٤]

فغلبتهم خزاعة على مكة، ونفتهم عنها.

وسماها الله تعالى البلد الأمين، فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين:١-٣)، وفي كتاب «هداية الحيارى»، قوله:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ هما في الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح عليه السلام، وأنزل فيها الإنجيل، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى تكليمًا، وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة من الشجرة التي فيه، وأقسم بالبلد الأمين، وهو مكة التي أسكن إبراهيم وإسماعيل وأمه فيه، وهذا مثل ما ورد في التوراة: (تجلى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران). قال ابن قتيبة: ليس بهذا خفاء على من تدبره ولا غموض، لأن مجيء الله من طور سيناء إنزاله بالتوراة على موسى من طور سيناء، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح من ساعير أرض الخليل، بقرية تدعى الناصرة(٥)، وباسمها تسمى من اتبعه – نصارى – وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلاؤه من جبال «فاران» إنزاله القرآن على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجبال فاران هي جبال مكة.. الخ

وقال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ (البلد:١-٢)، وقال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (الحج:٢٩)، وقال سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ (المائدة:٩٧)، وكذا ما ذكره الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ (إبراهيم:٣٧) ولما خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، وقف على الحزورة، وقال: «إني لأعلم أنك أحب البلاد إلي» الحديث.

ووقف عليه الصلاة والسلام عام الفتح على جمرة العقبة، وقال: «والله إنك لخير أرض، وإنك لأحب أرض الله إلي، ولو لم أخرج منك ماخرجت، إنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وما أحلت لي إلا ساعة من نهار، ثم هي حرام...» الحديث، وعنه ﷺ: «إن من صبر على حر مكة ساعة، تباعدت عنه جهنم مسيرة مئة عام، وتقربت منه الجنة مئة عام»، ووجد على حجر مكة مكتوب فيه: «أنا الله رب مكة الحرام، وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، لا تزول أخشابها، مبارك لأهلها في اللحم والماء»، ومما يدل على فضلها قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ (القصص:٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ

ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَآ﴾ (الأنعام:٩٢).

ومن شرفها أنها كانت لقاحًا[٦] لاتدين لدين الملوك، ولم يؤد أهلها إتاوة. تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم، فيدينون للحمس[٧] من قريش، ويزيدون في تعظيمهم، ويريدون الاقتداء بآثارهم من الشرف والفرائض. وكان أهلها آمنين، يغزون الناس ولا يغزون، ويحكمون على الناس ولايحكم عليهم أحد، وقد ذكر الشعراء كل ذلك في شعرهم حين مدحوهم. قال الزبرقاني بن بدر لرجل من بني عوف هجا أبا جهل، وتناول قريشًا:

أتدري من هجوت أبا حبيب

سليل خضارم سكنوا البطاحا[٨]

وزاد الركب تذكر أم هشاما

وبيت الله والبلــد اللقاحــا

وروي عن سعيد بن أبي سعيد، قال: سمعت أبا شريح الخزاعي يقول: إن رسول الله ﷺ، لما افتتح مكة، قام خطيبًا، فقال: «أيها الناس، إن الله سبحانه حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيامة، لايحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسفك بها دمًا، أو يعضد(٩) بها شجرًا. وأنها لا تحل لأحد بعدي، ولم تحل إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ألا وهي قد رجعت على حالها بالأمس، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فمن قال رسول الله قتل بها، فقولوا: إن الله تعالى قد أحلها لرسوله، ولم يحلها لك». وقالت عائشة رضي الله عنها: «لولا الهجرة لسكنت مكة، فإني لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة، ولم يطمئن قلبي ببلدة قط ما اطمأن بمكة، ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة» تريد بقرب السماء منها قرب الرحمة ونحوها، وإلا فجميع أجزاء الأرض بالنسبة إلى بعدها عن السماء سواء.

وقال ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطواف:

حبذا مكـــة من وادي

أرض بها أهلي وأولادي

أرض بها ترسخ أوتادي

أرض بها أمشي بلا هادي

وأصل مكة وحرمتها ما عظمه الله سبحانه وتعالى من حرمة بيته، حتى جعلها – لأجل البيت الذي أمر برفع قواعده – أم القرى، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى:٧)، وحكى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي رضي الله عنهم أن سبب وضع البيت والطواف به أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ

خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠) فغضب عليهم، فعادوا للعرش، فطافوا حوله سبعة أشواط[١٠] يسترضون ربهم، فرضي عنهم، وقال لهم: ابنوا في الأرض بيتًا، يعوذ به من سخطت عليه من بني آدم، ويطوف حوله كما فعلتم بعرشي، فأرضى عنهم، فبنوا له هذا البيت، فكان أول بيت وضع للناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٦) الآية، فلم يختلف أهل العلم أنه أول بيت وضع للناس للعبادة، وإنما اختلفوا هل كان أول بيت وضع لغيرها؟ فقال الحسن وطائفة: قد كان قبله بيوت كثيرة. وقال مجاهد، وقتادة: لم يكن قبله بيت، والجمهور يرجح القول الأول، وعليه أكثر المؤرخين، وجمع من المفسرين، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿مُبَارَكٗا﴾ تأويلان، أحدهما: أن بركة ما يستحق من ثواب القصد إليه، والثاني: أنه أمن لمن دخله حتى الوحش، فيجتمع فيه الظبي والذئب. ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ يحتمل تأويلين، أحدهما: هدى لهم إلى توحيده، والثاني: إلى عبادته في الحج والصلاة. ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ فكانت الآية في مقام إبراهيم تأثير قدميه فيه، وهو حجر صلد، والآية في غير المقام: أمن الخائف، وهيبة البيت عند مشاهدته، وامتناع الطير من العلو عليه، وتعجيل العقوبة لمن عتا فيه، وما كان في الجاهلية من أصحاب الفيل، وما عطف عليه قلوب العرب في الجاهلية من تعظيمه، وأن من دخله من الجبابرة، وهم غير أهل كتاب، ولا متبعي شرع يلتزم أحكامه، حتى إن الرجل منهم كان يرى قاتل أخيه وأبيه. ولا يطلبه بثأره فيه، وكل ذلك آيات الله تعالى ألقاها على قلوب عباده، وأما أمنه في الإسلام، ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ تأويلان، أحدهما: أمن من النار، وهذا قول يحيى بن صعدة، والثاني: أمن من القتل؛ لأن الله تعالى أوجب الإحرام على داخله، وحظر عليه أن يدخله محلا، وقال رسول الله ﷺ حين دخل مكة يوم الفصل حلالا: «أحلت لي ساعة من نهار، ولم تحل لأحد من قبلي، ولا تحل لأحد من بعدي» ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ فجعل حجه فرضًا، بعد أن صار في الصلاة قبلة؛ لأن استقبال الكعبة في الصلاة فرض في السنة الثانية من الهجرة، والحج فرض في السنة السادسة.

وقد فتح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في العام الثامن للهجرة، وأشرق الإسلام على السمات فلمح سناه عليها بهاء وحسنًا. شعت الوحدانية، فطهرت البيت الحرام من نصب الأوثان، وطوحتها جزازًا في غيابة الفناء. وخطرت الفضيلة في الأرجاء، تنيط بالهامات جلال الإيمان، ووقار المخبتين.

* * *

الهوامش:

(١) عك بن عدنان أخو معد، وهو في اليمن، وقال بعض النسابين: إنما هو معد بن عدنان؛ فأما عك، فهو ابن عدنان من ولد قحطان، وعدنان بالنون من ولد إسماعيل، ومذحج كمسجد، أبو قبيلة من اليمن، وهو مذهج بن محامر بن مالك بن زيد بن كهلان من سبا. قال سيبويه: الميم من نفس الكلمة، وفي القاموس مذحج – كمجلس – أكمة، ولدت مالكا وطيئا أمهما عندها، فسموا مذحجا. وذكر الجوهري إياه في الميم غلط، وإن أحاله على سيبويه.

(٢) الشريب الذي يسقى إبله مع إبلك، يقول: فخله يورد إبله الحوض، فنباك عليه أي تزدحم فيسقى إبله سقيه، والأكه: الضيق والزحمة، وأكه يؤكه أكا زاحمه، وائتك الورد: ازدحم (معنى الورد جماعة الإبل) والمعنى إذا ضجر الذي يورد إبله مع ابلك لشدة الحر انتظارًا فخله حى يزاحمك.

(٣) من غست الشيء إذا أذهبته.

(٤) هي قرية بالشام، ويقال لها: نصرانة ونصورية، ينسب إليها النصارى أو جمع نصران، كالندامى جمع ندمان، أو جمع نصرى، كمهرى ومهارى.

(٥) قال ابن الأثير: هو موضع عند باب الخياطين، وهو وزن قسورة. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: الناس يشددون الحزورة والحديبية، وهما مخففتان. وفي «روض السهيلي»: هو اسم سوق كانت بمكة، وأدخلت في المسجد لما زيد فيه، ونقل بعضهم عن مشارق عياض مثل ذلك. وفيه عن الدارقطني مثل قول الشافعي، ونسب التشديد للمحدثين قال: وهو تصحيف، ونسبه صاحب المراصد إلى العامة، وزاد أنهم يقولون: عزورة بالعين بدل الحاء، وقال القاضي عياض: وقد ضبطنا هذا الحرف علي ابن السراج بالوجهين.

(٦) يقال: قوم لقح، وحي لقاح: لم يدينوا للملوك. ولم يملكوا، ولم يصبهم في الجاهلية سبأ، وأنشد ابن الأعرابي:

لعمر أبيك والأنباء تنمى
لنعم الحي في الجلى رباح
أبو دين الملوك فهم لقاح
إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا

وقال ثعلب: الحي اللقاح مشتق من لقاح الناقة، لأن الناقة إذا لقحت لم تطاوع الفحل، وضعف هذا القول.

(٧) لقب قريش، ومن ولدت قريش، وكنانة وجديلة قيس؛ وهم فهم، وعدوان أبا عمرو بن قيس عيلان، وبنو عامر بن صعصعة ومن تابعهم في الجاهلية، هؤلاء الحمس، وإنما سموا لتحميسهم في دينهم، أي تشددهم فيه، وكذا في الشجاعة، أو لالتجائهم بالحمساء، وهي الكعبة؛ لأن حجرها أبيض إلى سواد، وقيل غير ذلك.

(٨) الخضارم بالضم الجواد المعطاء، والسيد الحمول.

(٩) عضد الشجرة عضدًا، من باب ضرب: قطعها.

(١٠) جمع شوط، وهو الجري مرة إلى الغاية، وفي القاموس: كره جماعة من الفقهاء أن يقال لطوفان الطواف: أشواط.

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

وتجد كثيرًا من الخطب التي يلقيها العظماء والقيادات السياسية، فيكيل لهم المستمعون الثناء جزافًا- ليست من بنات أفكارهم وعمل أيديهم؛ بل يقرح وراءه جنود مجهولون مآقيهم، ويجهدون نفوسهم، ويصلون ليلهم نهارهم، ويستنفدون طاقاتهم، ويقدمونها بكد يمينهم وعرق جبينهم إلى رئيسهم أو مديرهم أو كبيرهم.

وكم من جنود مجهولين لقوا الألاقي في تحرير البلاد من الاحتلال والاستعمار، وقضوا نحبهم، بعد أن انتزعوا لسكانها الاستقلال، فذاقت البلاد حلاوة الأمن، وتنسمت ريح الحرية بمعنى الكلمة، ونعمت بالسعادة. وأما هؤلاء الجنود المجهولون، فنسيتهم الأمة أو تناست، فلم تتحدث عنهم في نواديها ومجالسها، ولاجرى لهم ذكر على لسان، ولاسار بأسمائهم الركبان.

وهذا المحدث العبقري الشاه ولي الله الدهلوي يعرف بمساعيه وجهوده في العلوم الإسلامية، دون أن يجري ذكر لتضحياته وجهوده في تحرير البلاد من مخالب الاستعمار الغاشم. ولانعدو الحق لو قلنا: إنه أول من وضع النواة للكفاح ضد الاستعمار ولتحرير البلاد منه، في بداية القرن الثاني عشر الميلادي.

وما أكثر الجنود المجهولين من المسلمين وغيرهم في تحرير هذه البلاد من مخالب الاستعمار الغاشم. فهذه الزاوية والمدرسة الرحيمية للشاه عبد الرحيم – والد الشاه ولي الله الدهلوي رحمه الله - كانت تشكل نقطة انطلقت منها حركة تحرير البلاد، فقد ساهم علماؤها و خريجوها بكل قوة وحماسة في مواجهة الاستعمار البريطاني للهند، وأقضوا عليه المضاجع، وضيقوا عليه الخناق. وأدرك الشاه عبد العزيز الدهلوي رحمه الله خطورة الأوضاع وخاف على مصير البلاد، وأصدر فتوى ضد الحكومة المحتلة الغاشمة، حين أعلنت حكومة الاستعمار المحتل والناهب لخيرات الهند و ثرواتها- أعلنت أن الخلق لله والدولة للملِك، والحكم للشركة الشجاعة.

والذين خاضوا في كفاح التحرير ضد الاحتلال البريطاني في الهند في منطقة «بالاكوت» عام ١٨٣٣م جنود مجهولون نسيهم

البلاد أو تناستهم فعادوا أثرًا بعد عين، أو يقرأ كثير من الناس جهودهم وتضحياتهم على أنها أساطير الأولين، وقصة أكل عليها الدهر وشرب، وليست حقيقة ملموسة على أرض الواقع... مسيرة طويلة النفس وبعيدة المدى أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها!!

وهؤلاء الحاج إمداد الله المهاجر المكي، ومولانا محمد قاسم النانوتوي، ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي، ومولانا حسرت موهاني، ومولانا محمد علي جوهر، ومولانا محمود حسن الديوبندي، ومولانا أبو الكلام آزاد، ومولانا حسين أحمد المدني، وآلاف؛ بل مئات الآلاف من أمثالهم - ممن نعرفهم أو لانعرفهم، ولايضرهم ألا نعرفهم، فإن ربهم بهم عليم-كل أولئك جنود مجهولون، غمضنا عنهم العيون دون أن تعقد لهم ذكريات لهم تنوِّه بمساعيهم وجهودهم و تضحياتهم... رجال كانت مبادئهم أغلى من أرواحهم، وإصرارهم عليها لايعرف التنازل و النكوص... ولايعرف مساومة ولا مهاونة... رجال كانت حرية البلاد أحب إليهم من آبائهم و أبنائهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وأموالهم التي اقترفوها، وتجارتهم التي كانوا يخشون كسادها ومساكن يرضونها...إنهم جنود مجهولون مغمورون، وبعيدون عن الأضواء...

لماذا لانتذكر- حين نقطف ثمار الحرية، وننعم بخيراتها، ونتقلب في أحضانها، ونغط في سبات عميق في أمن وسلم وراحة- أن هؤلاء وأمثالهم ظلوا في أحراش لا أمان فيها، كانوا بشرا أمثالنا، يشعرون بالجوع والعطش شعورنا، وكانوا يحملون أرواحهم- ولا أظن أن هناك أسمى من الروح- بأيديهم لأجل حريتنا، ويحتاجون إلى غفوة فلم يجدوا إليها سبيلا سهرًا على مصالح الأمة، وذودًا لعاديات الدهر عنها، ودفاعًا للشنار والعار عنها.

إنهم رجال – حق رجال- رضوا بأن يصنعوا المعجزات، ويقدموا العبقريات، ويعملوا الأمجاد لغيرهم، من غير نعاق أو ضجيج أو تطبيل أو إعلام صارخ أو تصريحات صاخبة... إنهم شموع ومصابيح تتقد وتوقد وتبقى مضيئة، لينيروا الدروب للأجيال اللاحقة ما بقي الليل والنهار.

الجندي المجهول

الأعمال العبقرية في أي ميدان من ميادين الحياة البشرية يقف وراءها جنود باسلون، يضحون براحتهم ونفيسهم ونفوسهم في سبيل تحقيق الأهداف الكبرى لأمة من الأمم، يدافعون عن سماء وطنهم، وأرض قومهم، وكرامة أمتهم.

هذا طالب من طلاب مؤسسة تعليمية، خامل الذكر، لايؤبه له، وربما لايلقي له المدرس بالًا، ولايقيم له زملاؤه وزنًا، وربما لايكون في عداد الطلاب الفائقين الحائزين على المراكز العليا في الامتحانات السنوية والنصف السنوية. ثم يتخرج منها ويدخل مضمار الحياة والعمل، فيقوم بأعمالٍ عبقرية - لم تخطر بباله ولا ببال معلميه ومشرفيه - في منطقة نشاطاته. وربما لايطلع على هذا الجندي المجهول أحد، وتعزى هذه الأعمال إلى الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

وللأسف قد تسرب داء الغش حتى في البحوث والمقالات والكتب التي تظهر من حين لآخر على الساحة العلمية. فكم من مقالة وبحث وكتاب يعزى إلى أسماء لامعة على الساحة، دون أن يكون لأصحابها مشاركة – ولو قيد أنملة - في إعداده وتصنيفه. ولن تعدمَ على الساحة مقالاتٍ رائعةً، وبحوثًا علمية، ومؤلفات جامعة في عشرين أو ثلاثين من المجلدات الضخمة الكبار، تعزى إلى رجال لاناقة لهم فيها ولا جمل إلا أنهم استأجروا مساكين ذوي مقربة أو طلابًا ذوي متربة، على أجر بخس دراهم معدودة - وأحيانًا بدون أجر يذكر-، ليعدوها لهم ثم تنشر مذيلة بأسماء من يملكون القناطير المقنطرة من المال، ولايعود الجنود المجهولون إلا بخفي حنين أو بلا خفٍ من التقدير والتكريم الذي يلقاه هذه المؤلفات والمقالات.

(البقية على ص٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري